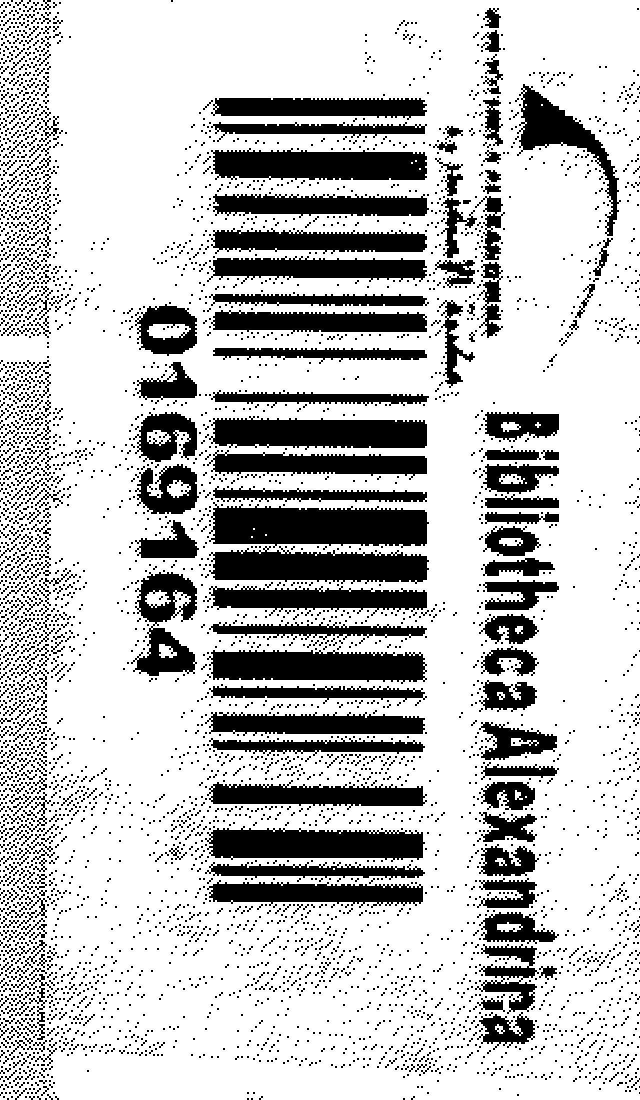
ساطع الحصري — د. أحمد زكي
د. محمد أحمد خلف الله — د. عبد العزيز الدوري
د. عبد الله عبد الدائم — د. عبد الرحمن البزاز
د. كلوفيس مقصود

آراء ودراسات في:

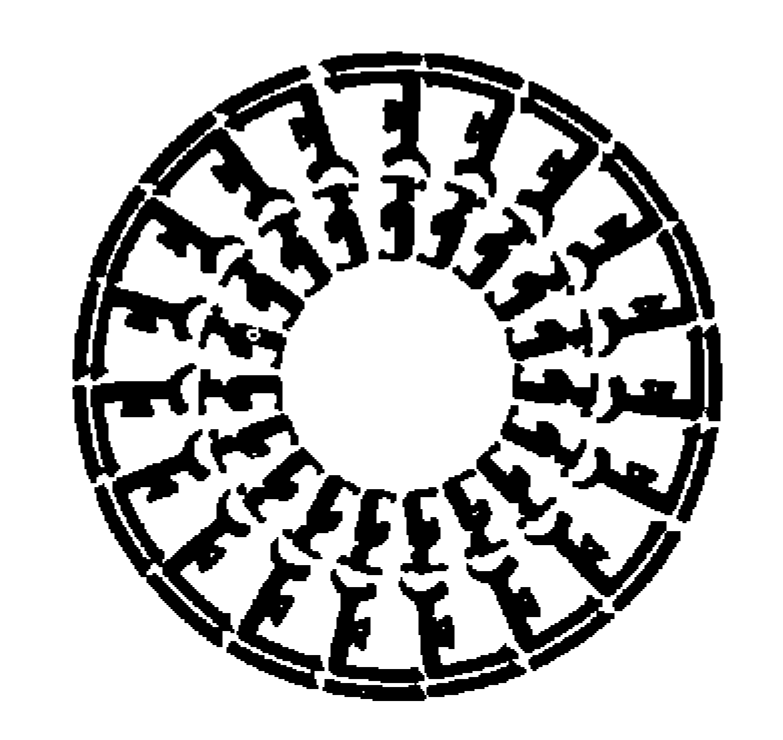
الفكر القومي



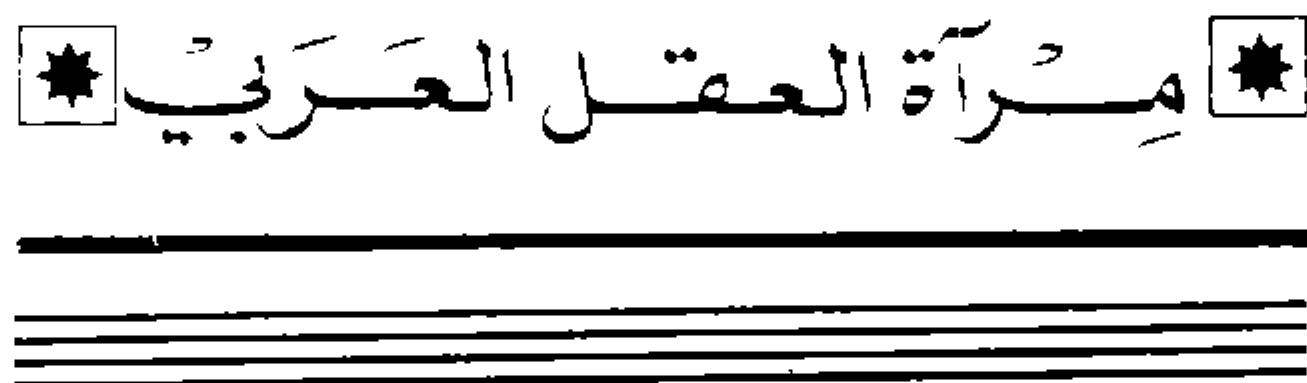


العدد الثامن
١٥ يوليو ١٩٨٥م


بسم الله الرحمن الرحيم



كتاب العربي



رئيس التحرير :

الدكتور محمد الرميحي

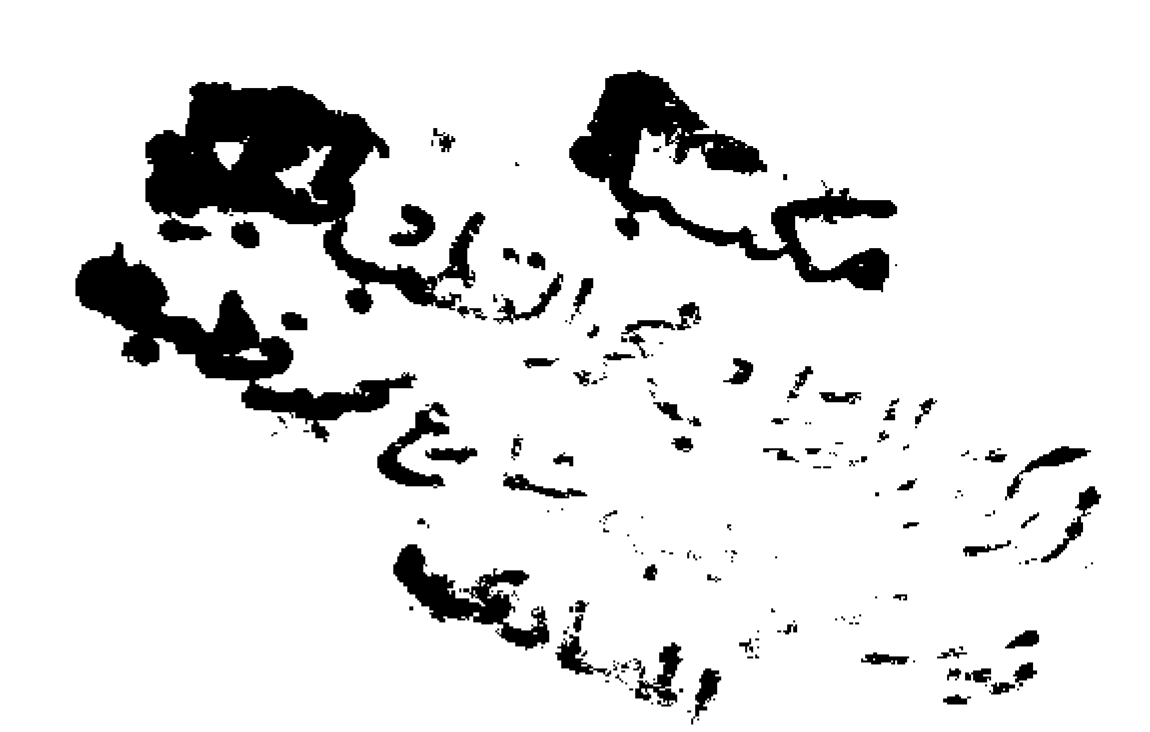
هذه السلسلة :

- تصدر عن مجلة العربي .
- مؤقتاً فصلياً .
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعاً واحداً تتناوله عدة أقلام .

السعر

الكويت ٢٥٠ فلسا ، العراق ٢٥٠ فلسا ، السعودية ٥ ريالات ، الأردن ٢٥٠ فلسا ، سوريا ٣ ليرات ، لبنان ٣ ليرات ، مصر ٢٥٠ مليما ، السودان ٢٥٠ مليما ، المغرب ٥ دراهم ، قطر ٥ ريالات ، الامارات ٥ دراهم ، سلطنة عمان ١/٢ ريال ، اليمن الشمالي ٣ ريالات يمني(ش) ، اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس يمني (ج) ، ليبيا ٣٥٠ درهما ، تونس ٤٠٠ مليم ، الجزائر ٤ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، بريطانيا ١ جنيه ، فرنسا ١٥ فرنكا ، اوروبا ٢ دولار / أو جنيه استرليني واحد ، أمريكا ٢ دولار .

ساطع الحصري — د. أحمد زكي
د. محمد أحمد خلف الله — د. عبد العزيز الدوري
د. عبد الله عبد الدائم — د. عبد الرحمن البزاز
د. كلوفيس مقصود



آراء ودراسات في :

الفكر القومي



● الكتاب الثامن ●
● ١٥ يوليو ١٩٨٥م ●
● كتاب العربي ●
● سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ●

تقديم

بقلم : الدكتور محمد الرميحي

وُجِدَ ليبقى !

لعل الاراء والدراسات التى نقدمها حول الفكر القومى فى هذا الكتاب قد عرفها كثيرون من جيل الآباء ، ولكن هذه الأفكار انحسر تداولها فى الخمس عشرة سنة الأخيرة على الأقل ، وإنما يدفعنا الى انتقائها واعادة نشرها وتقديمها للقارىء من جديد هو ايماننا بأن الفكر القومى ـ رغم ما شهدته الممارسة والتطبيق من صعاب ـ هو فكر ولد ليبقى ، وهو ان لم يكن على قمة الأولويات العربية اليوم فهو مكنون فى ضمير كل عربى .

وليس من المستبعد أن ينبعث من انتقد هذا الفكر او ممارسته فى وطننا العربى فى الخمس عشرة سنة الأخيرة ، وليس من المستغرب أن يستعاد هذا النقد بمايصحبه من مآخذ ، فلا ينبغى أن يفزعنا هذا النقد ، ولا أن نواجه تلك المآخذ من منطلق تعصبى مضاد .

فوجهات النظر القومية ظفرت بمن أيدها وأكثر من ترديدها ، كما أننا لا نستطيع القول بأن الفكر القومى سما على الشبهات ، وبرىء من الهفوات ، وذلك كله ليس غرضا فى طرح هذه الكتابات من جديد . فكل ما يكتب خاضع للنقد ، وكل اجتهاد لا بد له أن يخضع لاحتمالات التخطئة والاصابة ، ولكن الغرض الرئيسى من طرح الموضوع مجددا هو التوكيد على أن قدرنا يتمثل فى التمسك بقوميتنا .

فالتحليل الموضوعى لنشوء القومية العربية هو فى حقيقة الأمر محصلة منطقية للمسار الذى سلكته الجماعة العربية . وهذا النشوء الموضوعى الضارب فى أعماق التاريخ جعل لأمتنا العربية من الخصائص وربط بها من القضايا والحقائق مالاتشاركها فيه كثير من الأمم .

والنظره الموضوعية للفكر والعلم تنفى أى تناقض فى المحيط العربى بين الملامح القومية العربية والشخصية العربية وبين الاسلام كدين للبشرية ، ومن يزعم ان هناك عداء بين العروبة والاسلام هو فى حقيقة الأمر لم يحسن فهم ما تعنيه العروبة ، واخطأ التفسير للمنطلقات الاسلامية ، ولقد بلغت الكتابات فى هذا الموضوع مبلغ الرشد ـ بعد ان مرت بطفولة المعرفة ، ومراهقة التعصب والانغلاق ـ وسن الرشد هذا يقول لنا مجددا ومكررا إن الخلاف بين العروبة والاسلام هو خلاف مفتعل ، فقد انصهرت وامتزجت واندمجت العروق العربية فى ظل الاسلام مع بقية الأعراق والجماعات الاسلامية على مدى زمنى طويل من التاريخ ، وماشهده تاريخنا من تناقض فى هذا الصدد انما كان وليد افتعال نسجته الأغراض السياسية المرهونة باتجاهاتها الموقوتة .

ولقد شكلت اللغة العربية ـ وهى إحدى دعائم الأمة ـ رباطا وثيقا يؤلف بين الجماعة العربية ، ووعاء انسانيا وحضاريا تختزن فيه ذكرياتها وتجاربها وجل ثقافتها ، وتصوغ بها أحلامها وآمالها . وإن اللغة العربية من أقدم اللغات المعروفة اليوم على وجه الارض ولقد قاومت بفضل الاسلام كثيرا من محاولات التخطى والاندثار والتهجين ، حتى صار من دواعى دهشة الكثيرين ـ من خارج اطار الوطن العربى ـ أن يروا عربيا فى أقصى المغرب يفهم بلغته الصافية ما ينطق به أخوه فى أقصى المشرق ، فى هذه الرقعة الواسعة من الارض التى تتباعد عشرات المئات من الاميال وتمتد فيها القفار والوديان ، وقد حافظت هذه اللغة على بنائها برغم كل المحاولات الأجنبية ضدها فى الماضى البعيد والقريب ، ولا بد أن هذه المحافظة تعنى شيئا مميزا ، وهذا الشىء هو تجسيد التكوين النفسى المشترك الذى عاشته الجماعة العربية .

وقد قال أحد المفكرين : إن اللغة هى جهاز الاجتماع عند الانسان ، فاللغة والأمة أمران متكاملان . . ان الحدود السياسية التى تستحق أن تسمى « طبيعية » هى الحدود الداخلية التى ترسمها اللغات . فما بالك بأمة على سطح هذه الرقعة الواسعة المتوغلة فى طولها وعرضها يتكلم قاطنوها لغة واحدة .

ولعل بعض نقاد الفكر القومى يلجأون الى طريق آخر فيضعون القومية ـ أية قومية ـ على طريق التناقض مع القوميات الاخرى من خلال علاقة تتسم بضيق الافق ، والتعصب العرقى ، وفقدان الثقة بالقوميات والأمم الاخرى ، وربما تردى بعض الكتاب القوميين ، عن جهل وقصور نظر ، فى هذا

المأزق ، مع أن الأمة العربية ـ من واقع الحقائق التاريخية ـ كانت بقوميتها المتميزة من أكثر القوميات انفتاحا على الآخرين ، فالعرب ـ كما هو معروف تاريخيا ـ لم يضيقوا بالأقوام الآخرين والقوميات الأخرى التى سالمتهم ووادعتهم حتى فى جاهليتهم ، ومن هنا جاء حديثهم عن العرب المستعربة أى أولئك الذين اكتسبوا العروبة من الملاصقة والمواطنة ، ثم جاء الاسلام فازداد صدر العرب اتساعا للقوميات والأعراق الاخرى الداخلة فى دين الله حتى صارت العربية لغتهم ، وقد جاء فى قول محكم للنبى أن « العربية هى اللسان » ، فالحقيقة الواضحة للعيان أن العروبة هى الهوية السياسية للعرب ، والعرب هم كل من تكلم العربية ، واندمج فى الثقافة العربية وتمثلها ، بغض النظر عن أصوله العرقية . وعلينا الاقرار بأن هناك تميزا وخصوصية حضارية للامم يكتسب حقيقته من اعتراف أمم العالم به بعامة والقوميات بخاصة ، هذا التميز الحضارى هو ذلك الموقف المشبع بارادة الحرية وروح الصلابة والنضال التى تواجه المستعمرين ، وترفض الاذلال والاستغلال ، وهذا أمر مستقيم مع الفطر الانسانية القومية وهو يتمشى مع طبيعة الاجتماع البشرى وحقائقه ، ومن هنا فإن هذا لا يصل بنا الى تناقض القوميات ، واضطرام العداوات ، واصطراع الآراء .

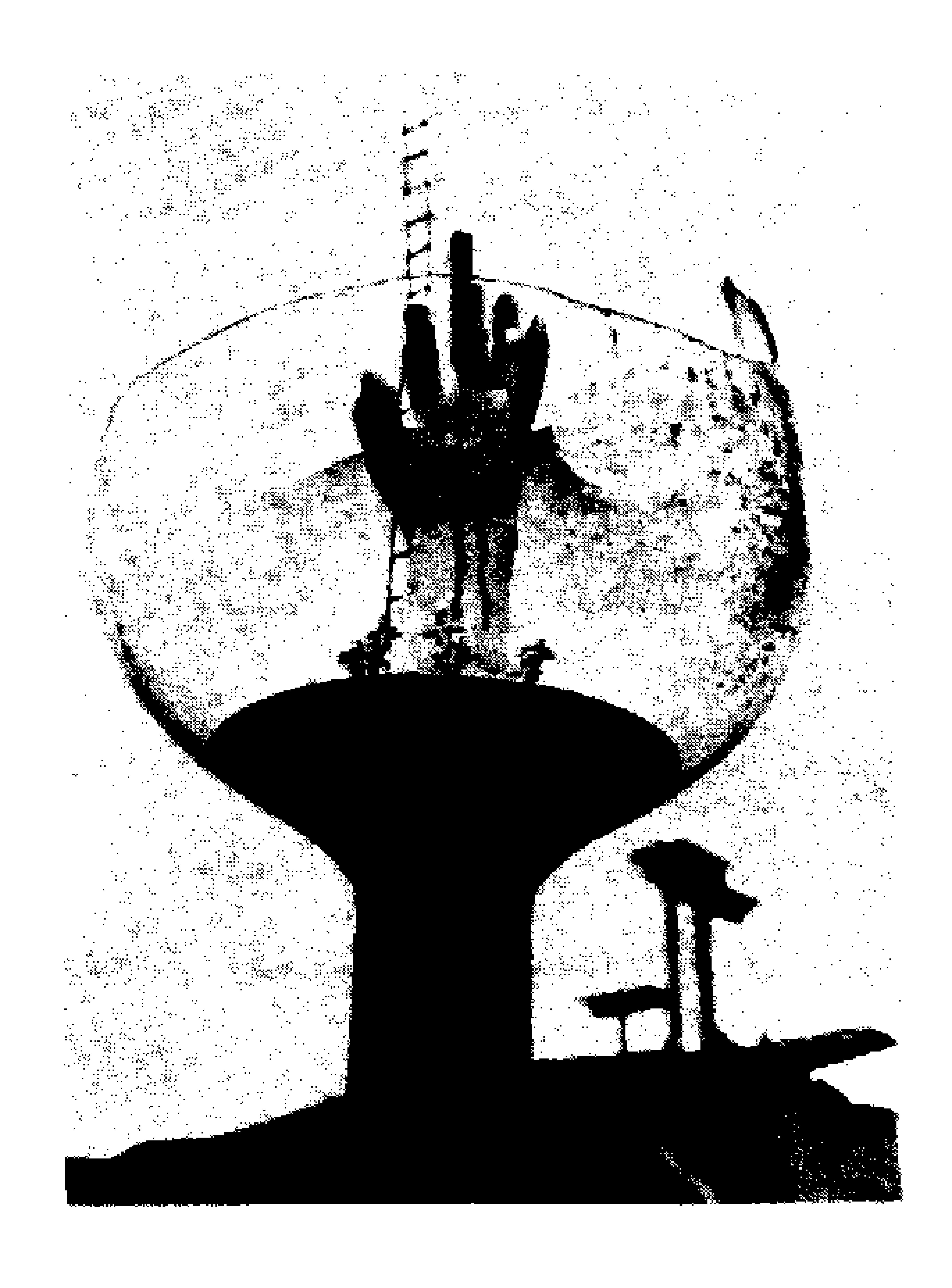
لقد مر الفكر القومى فى السنوات الأخيرة بمرحلة اضطراب شديد ناجم عن اضطراب فى مسيرة التطور العربى ، وذلك كله يضعنا أمام الحاجة الشديدة والتوجه الحاسم الى التفكير فى هذا التطور وبلورته والأخذ بأسبابه ، حتى يجىء ادراكنا ووعينا بقوميتنا العربية مصطبغا بالتعمق ، محفوفا بالثقة .

هذه الدراسة العميقة لاتتأتى من خلال التوكيد على عناصر بناء أمتنا ، واقترابها من تحقيق اهدافها الوحدوية ، ونفض الغبار عن مقوماتها فى اللغة والتاريخ ووحدة الثقافة والأرض والآمال والطموحات والمصالح المشتركة فقط ، بل بالتركيز على نقد الممارسات ، ابتغاء وصولنا الى الحجة القاصدة التى تنأى بنا عن المتاهة الممزقة التى يحترب فيها العربى مع أخيه العربى .

ان العناصر المشتركة والجوهرية بيننا معشر العرب ما زالت قائمة لم تقو كل السلبيات على تقويضها ، ومن أعجب الامور أن يكون التناقض الحالى على الساحة السياسية العربية دليلا أخر على وجود الامة العربية ، وديمومة بقائها ، وحيوية حركتها القومية ، مهما أحاط بها من متغيرات ، فهذا الاحتراب فى جزء منه هو خلاف على المسار القومي العربى أكثر مما هو خلاف على المسار القطرى .

وعندما تضع « العربى » هذا الكتاب بين يدى القارىء العربى ، وهو مجموعة من الكتابات القومية ، فانه لا يسعها الادعاء بأنها جامعة مانعة ، أو أن الخطأ لا يأتيها من بين يديها أو خلفها ، وانما أردنا بها أن نذكر من جديد أن الفكر القومى العربى ما زال ينبض فى عروقنا جميعا ، ونحن أحوج ما نكون الى هذا النبض المتدفق الحار ، ليظل فى عروقنا محبة وولاء ، وليثور فى قلوبنا ارادة ومضاء ، وليدور دائما فى أذهاننا وعيا وضياء .

د . محمد الرميحى .



الفصل الأوّل

من تراث ساطع الحصري

عصر القوميات

ساطع الحصري



اتفقت كلمة المؤرخين والباحثين على تسمية القرن التاسع عشر باسم « عصر القوميات » . . . . وأنا لا أعترض على هذه التسمية ، من حيث الأساس ، غير أني أعتقد أن الدقة العلمية تحتم علينا أن نقيد ذلك بقيد صغير ، ولكنه مهم ، فنقول : « عصر القوميات في أوروبا » .

العربي العدد الخامس ابريل ـ نيسان ١٩٥٩م .

ان القرن المذكور ـ الذي امتد بين انتهاء الحرب العالمية الأولى أو بين معاهدات ڤينا وتوابعها وبين معاهدات فرساي ولواحقها ـ ، اذا كان عصر « انتصار القوميات » بالنسبة الى البلاد الأوروبية ، فانه كان عصر شيء آخر بالنسبة إلى البلاد الأسيوية والإفريقية . . إنه كان عصر « استفحال الاستعمار » حقا ، إن القرن المذكور كان « عصر انتصار القوميات ، في البلاد الأوروبية » بكل معنى الكلمة .

فان خارطة أوروبا السياسية تغيرت خلال القرن المذكور تغيرا أساسيا في اتجاه ثابت عام : هو تكوين دول قومية في مختلف أنحاء القارة الأوروبية .

خلال هذا القرن توحدت ألمانيا ، فكونت دولة عظيمة قامت مقام الدول والدويلات الالمانية الكثيرة » .

وتوحدت إيطاليا ، بعد أن حررت جميع أقطارها من الحكم الاجنبي ، ومن حكم الملوك والأمراء الإقليميين .

واستقلت بولونيا ، ووحدت أقطارها الثلاثة التي كانت موزعة بين روسيا وألمانيا والنمسا .

وتكونت دولة يوغسلافيا ، ووحدت أقطارها التي كانت موزعة بين إمبراطورية النمسا وبين السلطنة العثمانية .

وفضلا عن ذلك كله ، قد انفصلت فنلندا عن روسيا ، والنرويج وبلجيكا عن هولندا .

كما تكونت عدة دول جديدة : اليونان ، وألبانيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا . .

ومقابل ذلك انقرضت إمبراطورية النمسا والمجر ، وتوزعت البلاد التي كانت تابعة لها ، بين سبع دول مختلفة .

كما انقرضت السلطنة العثمانية ، وتوزعت بلادها الأوروبية بين خمس دول مختلفة فضلا عن جزئها الذي بقي تابعا للجمهورية التركية ، التي خلفت السلطنة المذكورة .

مبدأ القوميات

إن كل هذه التبدلات والتطورات العظيمة ، إنما حدثت وفق مقتضيات « مبدأ القوميات » على أساس استقلال الأمم عن الدول الأجنبية التي كانت

تحكمها واتحاد الأمم التي كانت مجزأة وموزعة بين دول عديدة ، وبتعبير أقصر : على اساس تكوين « الدول القومية » .

وغني عن البيان أن هذه التطورات والتقلبات السياسية الخطيرة ، لم تحدث كلها مرة واحدة ، وبصورة فجائية ، بل حدثت في تواريخ مختلفة ، وبعد سلسلة طويلة من الأحداث الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن الثورات والحروب الداخلية والخارجية ، فالوحدة اليوغسلافية مثلا ، لم تتحقق إلا بعد مرور ستة عقود من السنين على تحقق الوحدة الإيطالية ، كما أن استقلال إرلنده تأخر عن استقلال اليونان مدة تناهز القرن الكامل .

ويجب ألا يغرب عن البال أن فكرة « حقوق القوميات » قوبلت بمعارضة شديدة ، في أوروبا نفسها ، ليس من قبل رجال السياسة فحسب ، بل من قبل الكثيرين من رجال الفكر والقلم أيضا .

لأن هؤلاء كثيرا ما كانوا يتأثرون بسياسة الدول التي ينتسبون اليها ، فينظرون إلى هذه العقبات والقضايا بمنظار مصالحهم الوطنية ، ولذلك كثيرا ماكانوا يسلمون بحقوق القوميات بالنسبة الى بعض الأمم وينكرونها بالنسبة الى بعضها الآخر ، كما كانوا يتفننون في اختراع « المبررات » لآرائهم ومواقفهم هذه ، تارة باسم « المصالح الدولية » ، وطورا باسم « المثل الانسانية السامية » .

مثلا ، « أرنست رينان » الشهير ، صرح - في كتابه « مستقبل العالم » - بانه يؤيد مبدأ القوميات ، عندما تكون الأمة المحكومة ارقى من الأمة التي تحكمها ، ولكنه لا يرى رأي الذين يلتزمون هذا المبدأ على الاطلاق ، لأنه يعتقد بأن ما يتطلبه « تقدم البشرية وتكاملها » ، يجب أن يسمو فوق جميع الاعتبارات في هذا المضمار .

وبديهي ، أنه كان يعني بذلك : أن الأمم المحكومة لا تستحق الاستقلال ، اذا كانت أقل تقدما من الأمم التي تحكمها .

ان الكتاب والمفكرين الذين كانوا ينظرون الى امور القوميات بمثل هذه النظرات المتحيزة ، كانوا كثيرين في مختلف البلاد الأوروبية .

مثلا : « كارل ماركس » وأصحابه كانوا يؤيدون ثورة البولونيين على روسيا ، ولكنهم كانوا يستنكرون ثورة المجريين على النمسا ، وحجتهم في ذلك كانت قولهم : إن البولونيين أكثر تقدما من الروس ، ولكن المجريين كانوا اشد رجعية من النمساويين .

والمؤرخ المفكر الأسباني المشهور « دي مارغال » ، أيضا لم يسلم بحق المجريين في الثورة على النمسا ، ولكنه اعتبر ثورة البولونيين على روسيا « ثورة مقدسة » تمشيا مع نظريته في النظم الفيدرالية .

حقوق قومية

وأما « الحقوق القومية » للشعوب الأسيوية والإفريقية ، فمن الطبيعي أنه ما كان يفكر فيهاأحد من كتاب القرن التاسع عشر ، في أوروبا ، لأن جميع الكتاب والمفكرين كانوا يزعمون بأن الشعوب المذكورة ليست متأخرة فحسب ، بل محرومة من قابلية التقدم ايضا !

ان ابرز الأمثلة وأغربها على التمييز بين « الأوروبيين » وبين « غير الأوروبيين » في امر « الحقوق القومية » صادفتها في كتاب مطبوع باللغة الفرنسية سنة ١٨٦٠ ، في « مبدأ القوميات » .

كان المؤلف « ماكسجين دولوس » من اشد المتحمسين للمبدأ المذكور ، انه كان في رومانيا سنة ١٨٥٧ ، حين اندفع اهالي الإمارتين ـ مولدافيا وفلاخيا ـ يتنادون للاتحاد ، ويعملون على تحقيقه بكل حماس ، على الرغم من مخالفة الدول العظمى لذلك ، وشاهد بعينيه مظاهر ذلك التيار القومي الشديد .

كما انه كان في ايطاليا ، سنة ١٨٥٩ عندما اندفع الايطاليون يصوتون للوحدة بحماس منقطع النظير ، وشاهد بمرأى عينيه كيف كان الناس يؤلفون قوافل طويلة ، يشترك فيها الشيوخ والشبان ، الرجال والنساء ، من اهالي المدن والأرياف يصفقون للوحدة بسرور وابتهاج .

ولذلك نرى المؤلف يسجل في كتابه مناظر هذا الاندفاع ومناقبه بكل تقدير واعجاب ، ويدافع عن مبدأ القوميات عن خبرة وايمان ، حتى انه يقول بوجوب تحقيق الوحدة الألمانية ايضا ، مخالفا في ذلك معظم ساسة فرنسا وكتابها .

ومع كل ذلك ، نراه في نفس الكتاب ، عندما يذكر شعوب افريقيا الشمالية بمناسبة من المناسبات ، يقول بوجوب وضعها تحت حكم دول جنوب اوروبا . . . . وبعد ان يقسم المغرب الأقصى والأوسط والأدنى ـ مع ليبيا ـ بين اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، ينتهي الى القول بوجوب وضع مصر تحت حكم اليونان ! . . .

ومن الغريب ان الكاتب الالماني المعروف « ماكس نورداو » ايضا اشترك في هذا النوع من التفكير ، على الرغم من اشتهاره بالجرأة في الرأي ، وعلى الرغم من تحمسه لمبدأ القوميات تحمسا منقطع النظير .

فنراه في البحث الذي نشره عن « القومية » يهزأ بأسلوب لاذع عنيف ، بكل من لا يقدر أهمية الفكرة القومية حق قدرها ، فيقول :

« ان الذين فقدوا البصيرة ، هم وحدهم يزعمون بان الفكرة القومية ، لهي من الآراء الطارئة ، التي لن تلبث ان تندثر وتتلاشى ، كما تندثر « الموضات » وتتلاشى ! ثم يؤكد إيمانه بالقضايا القومية بهذه العبارات الحاسمة :

« ان الوعي القومي ، من الأمور التي تحدث بالضرورة وبصورة طبيعية ، في مرحلة معينة من التطور البشري ، في الأفراد والجماعات . » .

« إنه من نوع الظواهر والحوادث الطبيعية التي لا يمكن منعها ، حتى ولا تأخيرها . . . . وذلك مثل حوادث المد والجزر في البحر ، وحرارة الشمس في موسم الصيف » .

ومع ذلك نراه يقول ، في الفصل الذي كتبه من « مستقبل البشر » :

« إن بلاد شمال إفريقيا ستكون مهجرا للشعوب الأوروبية ، واما سكانها الحاليون ، فسينزحون الى الجنوب ، الى البلاد الاستوائية ، الى ان يفنوا هناك » ! . .

الانتصار والاستعمار

ولا غرابة والحالة هذه ، اذا صار القرن التاسع عشر ، عصر « انتصار القوميات » في اوروبا ، وفي الوقت نفسه « عصر استفحال الاستعمار » في أفريقيا وآسيا ، واذا تعمقنا في البحث قليلا ، توصلنا الى حقيقة مهمة اخرى ، وعلمنا : أن انتصار الفكرة القومية في أوروبا ، كان من جملة الأسباب التي أدت الى استفحال الاستعمار في آسيا وأفريقيا .

ذلك لأن انتصار مبدأ القوميات في أوروبا ، لم يترك امام أية دولة من الدول ، أي مجال للتوسع في القارة المذكورة نفسها ، لأن جميع دولها أصبحت قومية ، ولأن حدود تلك الدول تقررت وفقا لمقتضيات مبدأ القوميات الى اقصى حدود الإمكان .

ولذلك اضطرت الدول الطامحة ، الى تحويل أنظار توسعها خارج القارة

الأوروبية ، ومن المعلوم أن الاستعمار الاوروبي للقارة الأمريكية كان قد بلغ مداه قبل القرن المذكور ، وتتالت الحركات الاستقلالية في مختلف اقطارها ، وفي الأخير اعلن « مونرو » مبدأ : « أمريكا للأمريكيين » ، فلم يترك للدول الأوروبية مجالا لتوسع جديد في تلك القارة ايضا .

ولهذه الأسباب كلها ، توجهت أطماع التوسع بكليتها نحو القارتين الآسيوية والإفريقية . . .

وهذا العامل ، بانضمامه الى العوامل الاقتصادية المعروفة ، دفع الدول الأوروبية الى التهافت على استعمار تلك البلاد ،بسرعة وبشراهة .

ولذلك شهد العالم هذا الحادث الغريب :

في الوقت الذي كانت خارطة أوروبا السياسية تتغير وتتطور وفق ما يرتضيه مبدأ « حقوق القوميات » صارت خارطة آسيا وأفريقيا تتخطط وتتكون وتتقسم ، وفق مصالح المستعمرين ومساوماتهم القومية .

وهذا هو الذي جعل القرن التاسع عشر ، عصر « انتصار القوميات » من جهة ، وعصر « استفحال الاستعمار » من جهة اخرى .

ولكن . . . . من الطبيعي ان هذه الاحوال ماكان لها ان تدوم الى الابد ،

بل كان من الطبيعي ، أن تستيقظ الشعوب الآسيوية والافريقية من سباتها ، الواحدة بعد الأخرى ، وان تتزود بأسباب الحضارة العصرية من ناحية ، وتعي حقوقها القومية وتطالب بها ، وتثور على مستعمريها من ناحية اخرى .

ومن المعلوم ان البعض من الشعوب المذكورة استطاعت ان تقطع شوطا كبيرا في هذا السبيل ، منذ بداية القرن الحالي ، ولا سيما منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، ولكن لا يزال امام معظمها طريق طويل وشاق ، محفوف بضروب من الموانع والعراقيل ، من الأشواك والادغال ، من الشواهق والوديان .

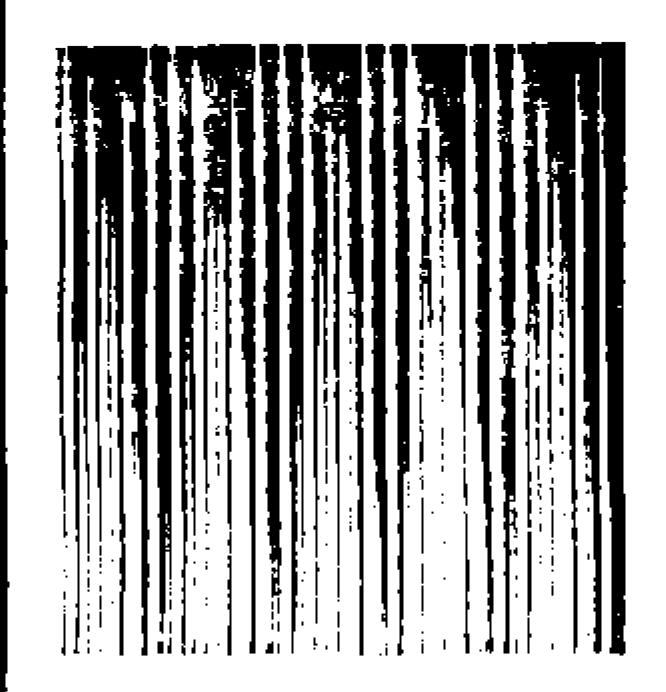
ومع كل ذلك ، لاشك ان الفكرة القومية ستتغلب في آخر الامر ، على جميع هذه الموانع والعراقيل . . . وستنتصر في البلاد المذكورة كما انتصرت من قبل في القارة الأوروبية .

ولهذا السبب ، سيكون القرن الحالي : « عصر انتصار القوميات » في القارتين الاسيوية والافريقية ، و « عصر تلاشي الاستعمار وانهياره في جميع القارات » .

ولاشك أن الأمة العربية ستكون أكثر المستفيدين من ذلك ، لأنها في الحالة الحاضرة أشد المتضررين من الاستعمار ومن رواسبه ومخلفاته الخطيرة .

القومية والتاريخ

ساطع الحصري



التـاريخ ، أهم الـوسائـل لاثـارة الـوعى القومي وتقويته فى النفوس . . لأنه يُكوّن ـ مع اللغة ـ أهم دعائم القومية ومقوماتها .

فاذا كانت اللغة بمنزلة حياة الأمة وروحها ، فان التاريخ بمنزلة شعور الأمة وذاكرتها

العربي العدد العاشر سبتمبر ـ أيلول ١٩٥٩ .

الأمة التي لا تعي تاريخها ، تكون شبيهة بشخص فاقد الشعور ، في حالة السبات أو الاغماء .

وأمثال هذه الأمم ، لا تستيقظ من سباتها يقظة تامة ، ولا تعي ذاتها وعيا كاملا ، الا بتأثير التاريخ وإيحائه .

هذه الحقيقة يجب أن تبقى نصب أعيننا خلال جميع الأبحاث والأعمال التي نقوم بها ، في سبيل « التربية الوطنية والقومية » .

لقد كتبت هذه الأسطر ، وأنا أعرف أن طائفة من الكتاب سيعترضون عليها أشد الاعتراض .

لاني كنت قرأت مقالة في مجلة أسبوعية ، زعم كاتبها العربي « أن ربط القومية بالتاريخ ، يؤدي الى حركة سلفية » وذلك يخالف ـ بالطبع ـ ما يجب أن نصبو اليه من نهوض وتقدم .

كما قرأت مقالة في مجلة شهرية ، زعم كاتبها « أن التاريخ يجذبنا الى الماضي ، فيحول دون انطلاقنا نحو قيم الحياة » ، فيجب علينا أن نحرر أنفسنا من تبعية التاريخ .

ولا شك في أن الذين ينظرون الى التاريخ بمثل هذه النظريات ، فيقولون بمثل هذه الآراء ، سيعتبرون ما كتبته آنفا خاطئا خطأ فاحشا ، وربما قالوا : إنه وليد روح المحافظة .

ولكني أود أن أصرح بهذه المناسبة ، أني من أبعد الناس عن نزعة المحافظة . فاني قد قلت منذ مدة طويلة ، ولا أزال أقول الآن : إننا في حاجة الى السير في طريق التجديد بسرعة كبيرة ، لأننا نعيش الآن في عصر أصبح فيه « التوقف » لا يؤدى الى « التأخر » فحسب ، بل يعرض الى خطر « الاضمحلال » أيضا .

ولذلك « يجب علينا أن نسلك ـ بدون تأخر ـ مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية .

« التجديد في كل شيء : في اللغة والأدب ، في التربية والأخلاق ، في العلم والفن ، في السياسة والثقافة ، في الزراعة والصناعة والتجارة . .

« التجديد في كل مكان : في البيت والمدرسة ، في القرية والمدينة ، في الشارع والحديقة . .

« التجديد في كل زمان ، وفي كل مكان . . في كل شيء يجب أن يكون شعارنا العلم » .

هذا ما كنت كتبته ونشرته وما زلت أقول به .

صفحات من التاريخ

واذا قلت ـ مع ذلك ـ بوجوب الاهتمام بالتاريخ القومي ، وبذل أقصى الجهود في سبيل نشره بين الناشئة . . فانما أقوله لاعتقادي بأن التاريخ لا يستوجب الرجوع الى الوراء .

فان المرء يمكن أن يكون محافظا ـ بل رجعيا ـ دون أن يعرف شيئا يذكر من التاريخ .

كما يمكن أن يكون تقدميا ـ بل ثوريا ـ مع كونه متعمقا ومتبحرا في أبحاث التاريخ .

ذلك لان التاريخ يعرض على أنظارنا سلاسل عديدة وطويلة ومتنوعة ، من أحداث التعالي والانحطاط والاضمحلال والانبعاث ، ويضع بين أيدينا وسائل الكشف عن أسباب تلك الأحداث ونتائجها . . ويترك لنا مهمة استنباط الدروس والعبر التي تفيدنا في حياتنا وأعمالنا .

واذا ما رأينا بعض الرجعيين والسلفيين يحاولون التسلح بأسلحة من التاريخ فيسعون وراء دعم آرائهم بدلائل تاريخية ، فان أحسن وأنجع طريقة لتفنيد مزاعم هؤلاء ، هي دعوتهم الى استعراض صحائف التاريخ بنظرات علمية وفلسفية دقيقة ، ولا شك في أن أمثال هذه النظرات تظهر الى العيان البون الشاسع بين ظروف العهد الذي يريدون أن يرجعونا اليه ، وبين ظروف العهد الذى نعيش فيه ، كما أنها تساعد على استبانة الأسباب والدوافع التى استوجبت تطور الأحوال منذ ذلك العهد الى الآن .

فلا يجوز لنا أن نزعم بأن التاريخ ـ بطبيعته ـ يجذب الى الوراء ، فيحول دون التقدم ، بل يجب أن نعلم علم اليقين بأن التاريخ ـ عندما يُدْرَس ويُدَرَّس بنظرات علمية فلسفية وتربوية حقة ـ يصبح قوة محركة تدفعنا الى الأمام دفعا مستمرا .

تاريخ العلوم

ولتوضيح رأيي في هذا المضمار ببعض الامثلة ، أرى أن أقلب قليلا بعض الصفحات من تاريخ العلوم :

إننا نعرف مثلا ، من « تاريخ علم الفلك » أن أجدادنا العرب أسْدَوْا الى

العلم المذكور ـ في زمانهم ـ أجل الخدمات . وأن فلكيِّ القرون الوسطى وعصر النهضة في أوروبا ، قد استفادوا من المؤلفات العربية استفادة عظيمة جدا ، حتى إنهم كانوا يقولون : لا يمكن لأحد أن يتخصص في علم الفلك ما لم يعرف اللغة العربية ، ويرجع الى الكتب المؤلفة بها .

إن طائفة من الاصطلاحات التي لا يزال يستعملها علماء الفلك في عصرنا هذا تشهد على تأثر العلم المذكور بالمؤلفات العربية شهادة صريحة : فإن كلمة« آزيموت » التي يكثر استعمالها في الرصدات الفلكية محرفة من كلمة « السَّمْت » العربية ، وكلمة « نادير » التي تدل على الجهة المعاكسة للمتناول ، ماهى إلا « النظير » العربي الفصيح ، والكوكب المعروف لديهم باسم « التار » هو « النسر الطائر » ، والكوكب الذي يسمونه « فيغا » ماهو الا اسم « النسر الواقع » ، وأما « فامالحوت » فهو « فم الحوت » ، و « بتلجوز » هو « بيت الجوزاء » ، ومما يدل على مبلغ تقدير علماء الفلك الحديثين لخدمات العرب في هذا المضمار ، أنهم عندما توصلوا إلى رسم خريطة سطح القمر ، ورأوا أن يطلقوا على براكينها أسماء « الأعلام » الذين خدموا علم الفلك بوجه عام ـ ودرسوا حركات القمر ، بوجه خاص ـ خصوا اثنين من البراكين بأعلاه عربية أطلقوا على أحدهما اسم « أبو الفداء » وعلى الآخر اسم « البناني » . .

وإني أعتقد : أن هذه الحقائق التاريخية ـ وأمثالها العديدة ـ يجب أن يعرفها كل عربي مثقف .

ولكن ، هل يسوغ لأحد أن يستنتج من قولي هذا ، أني أدعو إلى الاعتماد على المؤلفات العربية القديمة ، وتعلم علم الفلك منها .

لأراني في حاجة إلى التصريح بأن مثل هذه الدعوة تكون من أسخف السخافات ، لأن علم الفلك ، بعد أن أخذ ما أخذه من المؤلفات العربية تقدم تقدما عظيما ، وتوسع توسعا هائلا ، وذلك من جراء اختراع التلسكوبات ، وإنشاء المراصد الفلكية المجهزة بأضخم آلات التصوير الضوئي والتحليل الطيفي ، والمعلومات الفلكية وصلت الآن إلي درجة من السعة والدقة والتنوع ، ما كان يمكن أن تخطر ببال أحد ، ليس من علماء العرب الذين كانوا يرصدون بعيونهم المجردة فحسب ، بل حتي من علماء القرن الثامن عشر الذين كانوا يستبينون بالتلسكوبات أيضا .

فالنسبة بين ما اكتشفه وعرفه فلكيو العرب في العصور الماضية ، وبين ما اكتشفه وعرفه علماء الغرب في عصرنا هذا ، أصبحت شبيهة بالنسبة بين

الفسيلة الصغيرة وبين شجرتها الباسقة الأغصـان ، التي نبتت وتولـدت منها بمرور الزمان .

وكذلك الأمـور في سائـر العلوم والفنون ، من الـطب والجراحـة ، الى الكيمياء والزراعة . . من المؤكد أنه كان لعلماء العرب مآثر وخدمات جليلة في هذه العلوم وصلوا بها إلي أوج الرقي بالنسبة الى أحوال العصر الذي عاشوا فيه ، ومن المؤكد أن علماء الغرب استفادوا من مؤلفات هؤلاء استفادة كبيرة جدا ، ولكن العلوم المذكورة قد تقدمت وتوسعت في العصور الأخيرة تقدما هائلا .

الثقة بالنفس

ونحن ، عندما نتكلم الآن عن مآثر أجـدادنا في هـذه الميادين المختلفـة ، ونطلب نشر المعلومات المتعلقة بذلك بين صفوف المثقفين في البلاد العربية ، لانفعل ذلك بقصد حمل الناشئة على تعلم العلوم المذكورة من الكتب العربية القديمة ، بل نفعل ذلك لغايات معنوية وتربوية بحتة .

لأننا نعتقد بأن هذه الأبحاث والمعلومات توحي إلى الشبان الايمان بإمكانات الامة العربية ، وتثير في نفـوسهم نوازع الـطموح ، وتـدفعهم الي الدرس والبحث بكل جد ونشاط .

فانهم عندما يعلمون بأن أجدادنا كانوا أساتذة الغرب في هذه الميادين في حقبة من التاريخ ، يتألمون من تأخرنا الحالي ، فيقولون في قرارة أنفسهم : « لايليق بنا أن نبقى على حالتنا الحاضرة من التأخر ، بل يجب علينا أن نسعى ونكد ، ونبحث ونبتكر . . لكي نصبح خير خلف لذلك السلف » .

وأما إذا لم يطلعوا على شيء من مآثر علماءالعرب وخدماتهم ، ولم يجدوا في الكتب العلمية التي يقرأونها اسما عربيا بين الأسماء اليونانية والأوربية الكثيرة ، فإنهم يظنون أن الأمة العربية كانت متأخرة في جميع العصـور ، ويميلون الى الحكم بأن هذه الحالة نتيجة نقص في استعداد الامة وإمكاناتها . . وطبيعي أن هـذه الظنـون تثبط عزائمهم ، وتضعف فيهم الـرغبـة في الـدرس والبحث والابتكار .

ويجب ألاَّ يغرب عن بالنا ، أن للملاحظة الاخيرة خطورة خاصة : لان طائفة كبيرة من خائري العزائم ومن أعداء العروبة لاينفكون عن نشر مثل هذه

الآراء ، ويزعمون أن العرب محرومون من قدرة الاكتشاف والابتكار ، فينفثون بذلك في نفوس الناشئة سموم اليأس والقنوط .

فمن أوجب الواجبات التي تُفرض علينا أن نكافح أمثال هذه المزاعم والدعايات بكل الوسائل وبكل اهتمام .

لأننا نعلم - العلم اليقيني - بأن الأمل والايمان ، من أهم دوافع العمل والاقدام . إن كل ما قلته آنفا عن تاريخ العلوم ينطبق على سائر فروع التاريخ وميادينه أيضا .

فنون الامس واليوم

فإننا عندما نبحث ونتكلم عن ماثر علماء العرب في شئون الحرب والسياسة ، لا نحاول قط أن نتلقى منهم دروسا في فنون الحرب ، ونظم الحكم ، وأصول السياسة ، لاننانعلم - بكل تأكيد - بأن قيمة هذه الامور تتبع - بطبيعتها - ظروف زمانها ومكانها ، فأن ماكان مفيدا بل بالغ الفائدة في بعض الظروف المعينة قد يكون خاليا من الفائدة ، حتى إنه قد يصبح مضرا بالغ الضرر في ظروف أخرى .

فان الخطط الحربية التي كانت تضمن النصر في عصور المواصلة بالخيول والبغال والجمال ، والقتال بالسيوف والخناجر والنبال . . لايفيد شيئا في عهد الطيارات والدبابات والصواريخ العابرة للقارات .

كما أن نظم الحكم التى كانت تكفل تقرير الأمن والرفاه في عهود بساطةالحياة الاجتماعية ، أصبحت عاجزة عن أداء شيء من تلك المهام ، في عصور التشدد والتعقد للحياة الاجتماعية التي نعيش فيها الآن .

ونظم الادارة والقضاء التي كانت تضمن إقرار العدل وإحقاق الحقوق في عهود الاقتصاد البيئى المحدود والصناعات اليدوية البسيطة . . . أصبحت غير صالحة لذلك في ظروف الاقتصاد العالمي والصناعات الميكانيكية التي تغمرنا الآن ، ولا سيما في عهد التقنية الحديثة التي صارت تغزو المعامل بسرعة متزايدة، وفي فجر الذرَّة الذي أخذ يفتح الأبواب لانقلابات جديدة هائلة .

ولكن الأبحاث التاريخية تفيد فوائد عظمى ، من وجوه أخرى ، لأنها تظهر إلى العيان الخوارق التي تتحقق من قوة العزيمة ، وسعة الحيلة ، وروح

التضحية من ناحية .. والكوارث التي تنجم من تفشي الانانية ، واستشراء الشقاق ، واستحواذ الجمود ، من ناحية أخرى .

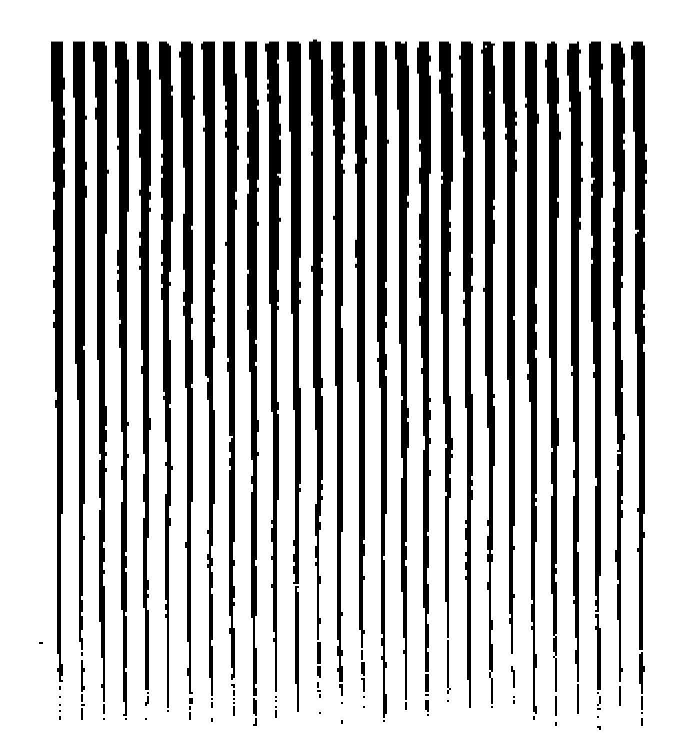
وغني عن البيان أن هذه الأمور تلعب دورا مهما في التربية الوطنية .

ومما يؤيد قولي هذا ـ فلا يترك مجالا لأي شك في هذا المضمار ـ أن جميع الأمم الراقية تهتم بنشر المعلومات التاريخية بين الناس اهتماما كبيرا جدا .

حتى أبعد الأمم عن نوازع المحافظة ، والتجديد ، لاتهمل أبحاث التاريخ ، بوجه من الوجوه ، بل تتوسل بشتى الوسائل لتذكير الناس بمختلف أحداث الماضي ، على اختلاف أنواعها .. فالمهرجانات التذكيرية التي تنظم احتفالات في مختلف المناسبات التاريخية ، والكتب والمقالات التي تؤلف وتنشر والأحاديث والمحاضرات التي تلقي وتذاع بهذه المناسبات .. كلها من آثار ، اهتمام الأمم بالتاريخ وشواهده البليغة .

وبناء على كل ما سبق ، لاأتردد في تكرار ما قلته آنفا :

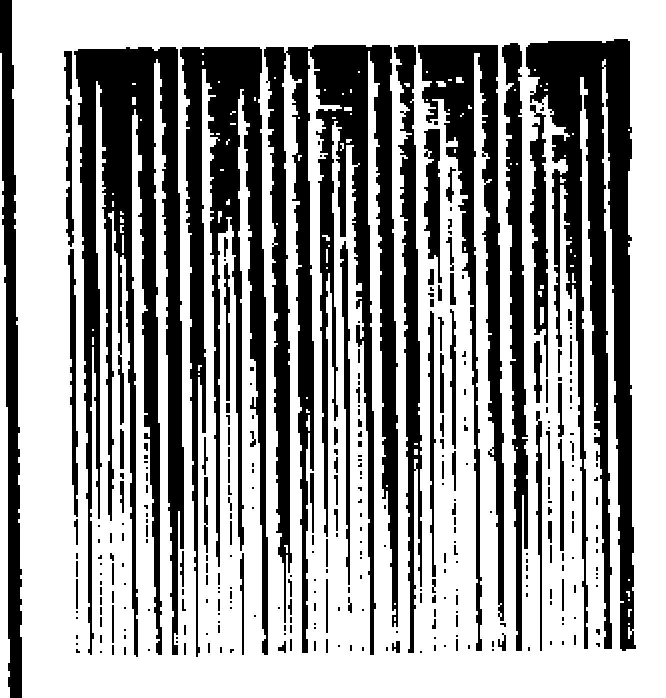
يجب علينا أن نهتم بدراسة تاريخنا القومي اهتماما كبيرا ، ونسعى الى نشر أبحاثه بين ناشئتنا سعيا حثيثا .. دون أن نخشى أن يكون عملنا هذا ، مؤديا الى إثارة روح المحافظة ، أو مشجعا للحركات الرجعية .





حول القومية العربية

ساطع الحصري



إن الواقع والانقلابات السياسية التي توالت منذ قرن ونصف قرن ، والأبحاث الاجتماعية التي تناولت تلك الوقائع والانقلابات طوال هذه المدة ، قد دلت دلالة قاطعة على أن العناصر الأساسية في تكوين القومية هي : وحدة اللغة ووحدة التاريخ ، وما ينتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمنازع ، وفي الآلام والآمال . .

لا شك في أن جميع الناطقين بالضاد ، جميع أبناء البلاد العربية ، تتوافر فيهم هذه العناصر والمقومات الأساسية ، ولذلك فهم يكونون أمة واحـدة ، بهذا الاعتبار .

وأما الدول والدويلات ، والامارات والمشيخات العديدة التي انقسمت إليها البلاد المذكورة ، والحدود التي فصلت بين هذه الأقسام المختلفة ، فليست إلا عوارض طارئة ، نتجت عن مصالح السياسة الاستعمارية ، فلا بد من أن تتهدم وتتلاشى أمام تيار العروبة الجارف .

ومن دواعي الاغتباط والابتهاج ، أن هذه الحقائق المهمة صارت تنتشر خـلال السنوات الاخيـرة ، وبسرعـة كبيرة ، في مختلف الأقـطار العربيـة ، وأخذت تتغلغل في نفوس مختلف الطبقات ، وتتحول الى إيمان بوحـدة الأمة العربية على الرغم من تعدد دولها .

فيحق لنا أن نبتهج أشد الابتهاج ، بتطور فكرة القومية العربية ، بهذه الصورة ، إلى « عقيدة سياسية واجتماعية » تترسخ في النفوس ، وتتغلب فيها على النزعات الاقليمية الناجمة عن الظروف السياسية الماضية .

ولكن . . مما يؤسف له كل الأسف ، أن بعض الكتاب لا يتورعون عن التشكيك في صحة هذه الاتجاهات القومية ، بناء على ملاحظات ارتجالية .

فبعضهم يستسخف الفكرة القومية بذاتها . . وبعضهم يحاول زعـزعة الأسس التي تقوم عليها . . وبعضهم يطالب بتغيير اتجاهها . .

فيجدر بنا أن نقف قليلا عند الأهم من هذه الآراء المعارضة ، ونناقشها على ضوء الحقائق التاريخية والاجتماعية .

الوحدة القومية

يقولون : إن البشرية قد اجتازت مرحلة « التنظيم القومي » ووصلت إلى مرحلة « التكتل الأممي » .

يقول ذلك عدد كبير من الكتاب والمفكرين في أوروبا وأمريكا ، ويأخذ عنهم هذا القول ـ على علاته ـ بعض الكتاب في البلاد العربيـة ، ويتخذونـه مقدمة ، يتوصلون منها إلى الحكم التالي :

« لا يليق بنا ، ونحن نعيش في القرن العشرين ، أن نواصل السير وراء الفكرة القومية » .

ولكني أرى أنه يجب علينا أن نلاحظ :

أن الأمم الأوروبية إذا كانت قد وصلت ـ حقيقة ـ إلى مرحلة التكتل الأممي ، فانما وصلتها وكل واحدة منها في حالة « دولة قومية ، مستقلة وموحدة » ، ولم تتخل عن شخصيتها المتميزة عن غيرها ، في أوضاعها الجديدة ، فيجب علينا ، نحن أيضا ، أن نحقق وحدتنا القومية ، لكي نستطيع أن نحافظ على شخصيتنا الأممية التي يتكلمون عنها . . .

إني كنت شبهت قول القائلين بأن عصر القوميات قد انتهى ، نظرا لانتهائه في أوروبا ، بقول من يذهب إلى أن موسم الأمطار قد انتهى من العالم ، نظرا لانتهائه في بعض الأقطار من الكرة الارضية . . أو بقول من يظن أن موسم نضوج الأثمار قد فات ، نظرا لانتهاء نضوج الأثمار في بعض الأشجار التي يشاهدها ، متوهما أن كل أنواع الأثمار تنضج في وقت واحد ، في جميع أقطار العالم .

إني أتمسك بهذا التشبيه ، وأكرره الآن أيضا ، لأني لا أرى مجالا في أن شعور أمة من الأمم بذاتيتها ، إنما يتم عندما تصل الأمة إلى درجة من النضوج السياسي ، والاجتماعي وهو ، لهذا السبب لايخلو من الشبه بحادث « البلوغ » عند بني الانسان ، أو التزهر والاثمار عند أنواع النباتات . . .

وغني عن البيان أن ذلك لايحدث في جميع الشعوب ، وفي جميع الأنواع ، في وقت واحد ، بل إنه يتقدم عند البعض ، ويتأخر عند البعض الآخر ، وذلك تحت تأثير سلسلة طويلة من العوامل الداخلية والخارجية .

ويجب ألا ننسى أن انتصار الفكرة القومية في البلاد الأوروبية نفسها ، إنما تم في تواريخ مختلفة ومتباعدة . . فإن الوحدة اليوغسلافية ـ مثلا ـ لم تحقق إلا بعد مرور ستة عقود من السنين على تحقق الوحدة الايطالية ، كما أن استقلال إيرلندة تأخر عن استقلال اليونان مدة لا تقل عن القرن الكامل .

وعلى كل حال يجب أن نعلم علم اليقين ، أن اليقظة القومية ليست من الأمور التي تحدث وتتحقق في عصر معين ، أو موسم محدد . .

لغة وتاريخ

وقد قال بعض الكتاب « إن الفكرة القومية التقليدية ، المستندة إلى اللغة والتاريخ إنما هي من الآراء والنظريات البالية التي تعود إلى القرن الماضي ، وأما الاساس الحقيقي للقومية بوجه عام ، وللقومية العربية بوجه خاص ، فهو :

وحدة الصراع ، وبتعبير آخر : هو الحاجة إلى توحيد العمل للتغلب على العدو المشترك الرابض أمام الجميع » .

لاشك في أن « الوحدة في الصراع في سبيل القضاء على العدو المشترك » مما يزيد شعوب الأمة وأفرادها تماسكا على تماسكها ، ولكن ذلك لايمكن أن يعتبر أساسا لتكوين القومية بوجه من الوجوه .

لأن « الصراع ضد العدو المشترك » قد يجمع بين دول وقوميات مختلفة ، وغني عن البيان أن التجمع الذي يتم على هذا الأساس ـ مهما كان شكله ومداه ـ لايمكن أن يغالب الزمان ، بل يزول بزوال عهد الصراع المذكور ، أو بتغير اتجاهاته وأهدافه .

والتاريخ يعطينا على ذلك أمثلة لاتعد ولا تحصى ، وربما كان أقرب تلك الأمثلة وأبلغها ما حدث خلال الحرب العالمية الأخيرة :

مما لايخفى على أحد أن الكفاح ضد ألمانيا النازية استلزم اتفاق أميركا وإنجلترة مع روسيا السوفيتية ، وحمل الدول المتحالفة المذكورة على العمل المشترك ، للتغلب على العدو المشترك طوال سني الحرب ، ولكن . . عندما تم الانتصار على ألمانيا ولم يبق عدو مشترك أمام المتحالفين ، انتهى التحالف الذي كان قد تولد من وحدة الصراع . . وترك محله لعداء أشد من العداء السابق للتحالف ، وخصام أكثر ضراوة مما كان قائما قبل عهد « وحدة الصراع » .

وغني عن البيان أن « الوحدة » التي تهدف إليها القومية العربية ، الوحدة التي تنجم عن وحدة اللغة ووحدة التاريخ ، لا يمكن أن تتعرض لمثل هذه التقلبات ، بل تكون « وحدة طبيعية » تستمر مدى الحياة ، لانها تكون ـ في حقيقة الأمر ـ مظهرا من مظاهر حياة الأمة نفسها .

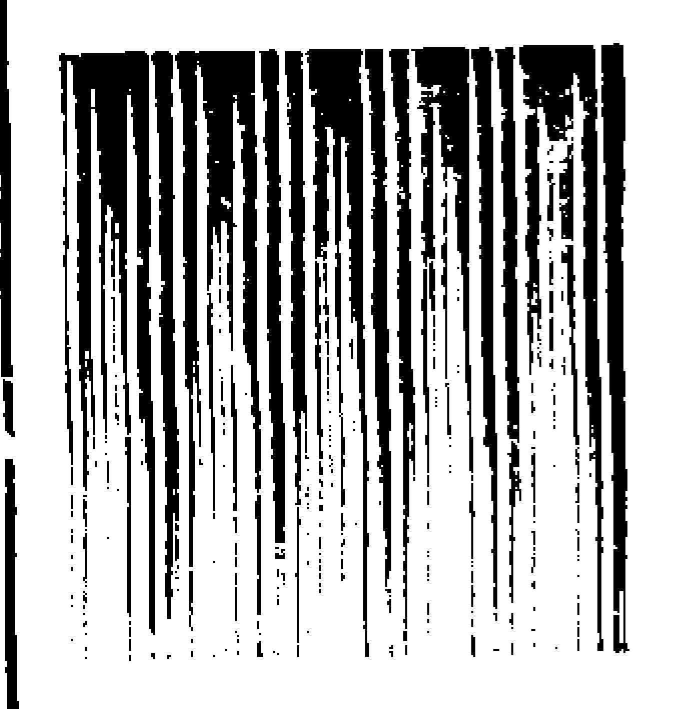
ولابد لي من التصريح بأني لم أقصد بقولي هذا ، استبعاد أمر « وحدة الصراع » من ميدان السياسة العربية ، بل بعكس ذلك ، أنا أقول بوجوب التفاهم والتعاون والتحالف ، مع الدول والشعوب التي تصارع ـ مثلنا ـ الاستعمار وآثار الاستعمار .

ولكني أفصل هذه القضية عن قضية الوحدة القومية فصلا تاما .

وأكرر القول بأن « الوحدة العربية » التي نتوق إليها ، والتي ندعو إلى المثابرة على العمل لتحقيقها ، لاتعني « توحيد الأعمال والمساعي في ميادين محدودة لغايات معينة » ، بل تعني : « توحيد الأعمال والمساعي في جميع الميادين » وبتعبير أقصر وأشمل : توحيد « الحياة القومية » بكل ما في هذه الكلمة من معان سامية .

ضرورة الوحدة

ساطع الحصري



ان فكرة القومية العربية تعني الايمان بوحدة الأمة العربية ، وتتطلب العمل بما يستوجبه هذا الايمان ، وذلك بالجهد الدائب في خدمة هذه الأمة ، للمساهمة في ضمان تقدمها ووصولها الى أوج الرفعة والقوة والكمال ، في ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة

العربي العدد السادس مايو - آيار ١٩٥٩ م

فعلى كل منا أن يؤمن أصدق الايمان ، بأن الوطن العربي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي وجبال زاغروس ، ويشمل جميع البلاد التي يتكلم أهلها العربية ، وأما الدول والدويلات القائمة على هذه البلاد ، فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التي قامت بين الدول المستعمرة خلال حكمها لها ، وسيطرتها عليها ، والحدود التي تفصل هذه الوحدات السياسية بعضها عن بعض ـ في الحالة الحاضرة ـ ليست الا الخطوط التي رسمتها والسدود التي شيدتها الدول المستعمرة ، حين اتفقت على تحديد مناطق نفوذها أولا ، وحين اقتسمتها اقتسام الغنائم أخيرا .

ولا بد لكل عربي أن يعلم ذلك علم اليقين ، فيسعى الى تطهير نفسه من رواسب النزعات الاقليمية ، التي ولدتها عهود الانحطاط والاستعمار ، وعليه أن ينظر الى تلك الحدود ، نظرته الى الاسلاك الشائكة التي تحيط بالمعتقلات ، فيجعل أمنيته القصوى ، ومثله الأعلى : ازالة تلك الحدود ، من الأراضي ومن النفوس ، لتوحيد البلاد العربية ، تحت ظلال راية العروبة الشاملة .

الشك والتشكيك

أعرف أن هنا ، وهناك ، جماعات من ضعيفي الايمان ، يقولون : هذا محال . . ، هذه البلاد المترامية الاطراف . لايمكن أن تتوحد تحت راية واحدة . .

وأما أنا ، فأدعو هؤلاء الى التأمل في تقسيمات العالم السياسية ، في الحالة الحاضرة .

فان راية واحدة ترفرف على بلاد شاسعة تمتد بين المحيط الاطلسي والمحيط الهادي ، في أمريكا الشمالية ، وراية واحدة أخرى تظلل بلاداً مترامية الأطراف تمتد من بحر البالطيك في غرب أوروبا حتى المحيط الهادي في شرق آسيا . .

وفي جنوب آسيا دولة كبيرة تضم ما يقرب من أربعمائة مليون من السكان ، وفي شرق تلك القارة ووسطها ، دولة أخرى يناهز تعداد سكانها الستمائة مليون . .

وهناك دولة كبيرة ، يفصل بين جزئيها الشرقي والغربي أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر من الأراضي الاجنبية .

وهناك دولة تتألف من نحو ثمانين مليونا من السكان ، مبعثرين على آلاف من الجزائر الصغيرة والكبيرة .

فكيف يجوز لأحد ، والحالة هذه ، أن يشك في امكان توحيد البلاد العربية تحت راية واحدة ، مع أن تلك البلاد يتصل بعضها ببعض اتصالا جغرافيا تاما ، ومع أن سكانها يرتبط بعضهم ببعض ارتباطا معنويا قويا ، بلغة واحدة وبتاريخ مشترك طويل ، وفضلا عن ذلك كله ، أود أن أذكّر هؤلاء المتشككين ، بأن البلاد العربية كانت قد اتحدت فعلا ، تحت راية واحدة ، والمسافات التي تفصل أقسامها المختلفة لم تحل دون اتحادها في العصور التي ما كانت تعرف البخار والكهربا ، ولا الطباعة والصحافة والاذاعة ، في العصور التي كانت تنحصر وسائل المواصلة والمناقلة فيها في الجمال والبغال في البر ، والزوارق والمراكب الشراعية في البحر ، فكيف يجوز لاحد أن يعد تلك المسافات مانعة للاتحاد في عصرنا هذا ، عصر البواخر والسيارات والطيارات ، والراديو والتلفزة التي تغلبت على المسافات وصغرت الأرض تصغيرا هائلا .

لاننسى أننا نعيش الآن في عصر صار الخطاب يلقى في الدار البيضاء ـ مثلا ـ فيسمع ، في لحظة واحدة ، في القاهرة وبغداد ، فضلا عن أن الانتقال من شرق الكرة الأرضية إلى أقصى غربها أصبح من الممكن أن يتم في مدة أقصر من المدة التي كان يقتضيها الانتقال من بيروت الى أسيوط . . في العصور الغابرة .

فيجدر بنا أن نتساءل ما أهمية هذه المسافات ، أمام وحدة اللغة ، ووحدة التاريخ ووحدة المشاعر التي تربط البلاد العربية ، بعضها ببعض ؟

خيالات وحقائق

وقد عرفت طائفة من ضعاف الايمان بالقومية العربية ، يقولون على الدوام ، ان الوحدة العربية وهم وخيال ، فلنكن واقعيين ، فلا نسير وراء الخيال . . .

وأما أنا ، فأقول لهؤلاء : إن كثيرا من الامور التي كانت من الخيالات في الماضي أصبحت من الامور الواقعية في الحالة الحاضرة ، ولاشك أن كثيرا من خيالات اليوم ستصبح ـ بدورها ـ من الحقائق الراهنة في الغد القريب أو البعيد .

ذلك ، لان كل الخيالات ليست من نوع أضغاث الأحلام ، بل إن للخيال كثيرا من الانواع الخلاقة البالغة الأهمية ، في حياة الأفراد والامم ، لانها تحوم

حول الأمور الممكنة والمرتقبة ، وتساعد كثيرا على تحقيق المرغوب والمقصود ، وإخراجها إلى حيز الوجود .

فيجدر بنا أن ألا ننسى : أن الازهار والأثمار - تنبت في مخيلة البساتنة والفلاحين ، قبل أن تنمو وتزدهر في الحقول والبساتين . . والعمارات تبنى وتقوم في مخيلة المعماريين ، والبواخر تتشكل وتتركب في أذهان المهندسين ، والأنصاب والتماثيل تتكون وتقام في مخيلة الفنانين ، قبل أن تشاد ، وتصنع ، وتنحت ، وتصب - فعلا - فتخرج إلى عالم الوجود حقيقة .

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الخيال مصدر وباعث للكثير من الآمال ، كما نستطيع أن نؤكد : أنه ما من إصلاح تم وتقدم حصل ، ولا من نهضة تحققت ورسالة انتشرت ، إلا وكانت قد بدأت على شكل مشروع تخيلته الاذهان ، وأمل جاش في الصدور ، ومثل أعلى توجهت إليه وتعلقت به النفوس . .

وأنا لا أتردد في القول : بأن الخيال يكون ، في بعض الاحوال أشد حيوية من الواقع .

لان « الواقع الحالي » كثيرا ما يمثل « الماضي البالي » ، في حين أن الخيال الحالي قد يكون مبعثا « للمستقبل الحقيقي » . .

وأعتقد أن فكرة الوحدة العربية هي من أحسن الأمثلة على هذا النوع من الخيال .

وينبغي ألا يغرب عن بال أحد منا : أن « فكرة الوحدة العربية » . . . قد اجتازت طور « الخيال الممعن » و « الأمنية البعيدة المنال » ، ودخلت في طور « التنفيذ » والتحقيق .

فاننا الآن « لسنا في بداية الطريق المؤدي اليها » ، بل دخلنا فيه فعلا ، وقطعنا شوطا كبيرا ، بعد اقتحام الكثير من العوائق والعقبات . . وإن كان ما بقي أمامنا الآن ، لا يزال طويلا وشاقا .

إن استعراضا سريعا لما حدث خلال العقود الاربعة الاخيرة من تاريخنا المعاصر ، يكفي لاظهار ذلك للعيان ، بكل وضوح وجلاء .

قبل أربعين عاما ، كانت البلاد العربية من أقصى شرقها الى أقصى غربها ترزح تحت احتلال الدول المستعمرة وسيطرتها السافرة أو المقنعة بقناع الحماية والانتداب ، وما كان بقي قطر عربي مصون من الاحتلال الأجنبي سوى الحجاز ونجد ، مع القسم الشمالي من اليمن ، فضلا عن أن هذه الاقطار أيضا

كانت تتخبط في بحر من المشاكل الاقتصادية والسياسية ، وتتعرض لألوان من المناورات الاستعمارية .

والوعي القومي ـ في ذلك التاريخ ـ كان ضئيلا جدا ، والمؤمنون بوحدة الأمة العربية والمدركون لرسالتها السامية ، كانوا « فئة قليلة » بكل معنى الكلمة ، فضلا عن أن بعض الزمر من تلك الفئة ، كانت قد أخذت تفقد إيمانها في إمكانات الأمة ، أمام جبروت القوى الاستعمارية وعنف وسائلها الطاغية .

ولكن . . منذ ذلك التاريخ ، تغيرت الأحوال تغيرا أساسيا :

لقد تحررت معظم الأقطار العربية من السيطرة الأجنبية ، ولم يبق تحت حكم المستعمرين ، سوى « الجزائر » من ناحية ، و « المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية ، من ناحية أخرى » .

وقد جلت الجنود الاجنبية ، من أهم الاقطار العربية جلاء تاما ، وانحصرت في بعضها الآخر ، في عدد محدود من المطارات والقواعد العسكرية .

وفضلا عن ذلك : قد توحدت دويلات حلب ودمشق وجبل الدروز وجبل العلويين ، التي أنشأها الفرنسيون ، فكونت « الجمهورية السورية » . . وتوحدت نجد مع الحجاز والعسير ، وكونت « المملكة العربية السعودية » ، ثم اتحدت سوريا مع مصر ، وكونت « الجمهورية العربية المتحدة »وفي الأخير ، ارتبطت الجمهورية المذكورة مع المملكة اليمنية باتحاد فدرالي ، فكونت « اتحاد الدول العربية » .

ومن جهة أخرى ـ وهذه الجهة أهم من كل ما سبق ـ فقد عم الوعي القومي جميع البلاد العربية ، واكتسبت قوة عظيمة وصارت فكرة القومية العربية تتغلغل في النفوس بشدة متزايدة ، تزايدا سريعا ، ولانغالي إذا قلنا إنها أخذت شكل تيار جارف ، تضطر الحكومات إلى مجاراته ، اضطرارا يشتد يوما فيوما .

وكل هذه التطورات المهمة ، قد حدثت في الوقت الذى كانت أصوات التواكل والقنوط والرجعية لاتزال تردد القول : محال . . محال !

إن ما تم تحقيقه من مستلزمات الوحدة العربية منذ ذلك التاريخ ولاسيا خلال السنوات الخمس الأخيرة ، لايترك مجالا لاعتبار القضية « خيالية » ، بعد الآن .

إن التطورات التى استعرضتها آنفا يجب أن تقوي إيماننا بامكان تحقيق ما تبقى

من مستلزمات الوحدة المذكورة ، ويجب أن تدفعنا إلى العمل في هذا السبيل بعزم أقوى ، واندفاع أشد .

ارباح وخسائر

وقبل أن أختم هذا البحث ، أرى من الضروري أن أصرح في هذا المقام بأنـي عندما استعرضت وعرضت مكاسب السنين المذكورة ـ من وجهة فكرة القومية العربية ـ لم أرد أن أتجاهل أو أتناسى ما حل بنا من خسائر ومصائب في هذا المضمار .

إني أعـرف أن التطورات التي حـدثت خلال العقـود الاخيرة من تـاريخنا المعاصر لم تأت في صالح قضيتنا على الدوام ، وأعترف بأننا تعرضنا خلال هذه المدة إلى بعض الخسائر والمصائب أيضا . . ومع ذلك فإني أعتقد أن مكاسب القومية العربية ـ خلال السنين المذكورة ـ فاقت خسائرها تفوقا كبيرا ، فضلا عن أنها زودتنا بالقوى المادية والمعنوية لتلافي تلك الخسائر ، والتغلب على تلك المصائب .

كما أعرف أن إحدى هذه المصائب كانت أشد هولا وأعظم خطرا . من كل مصـائبنا المـاضية . وهي لاتـزال تدمي قلوبنـا ، وتعرض مستقبلنـا الى أشد الاخطار . .

ومع هذا ، ألاحظ ـ من ناحية أخرى ـ أن هذه المصيبة الأخيرة ، فتحت عيون الكثيرين من الغافلين ، وصارت بمثابة« ناقوس الخطر » الذي بدق بشدة ودون انقطاع ، فلا يترك مجالا للنوم والغفلة أبدا . .

إنها أظهرت وجسدت ، أضـرار الانقسام السيـاسي الذي مني بـه الوطن العربي ، وجعلتها تُلمس لمس اليدين ، وتصدم أنظار كل ذي عينين .

ولاشك أن ظهور هذه الأضرار إلى العيان ، بهذه الصورة المجسمة ، من شأنه أن يقوي الوعي القومي ، وأن يرسخ الايمان بوحدة الأمة العربية ، ويدفع جميع أبناءالعروبة إلى العمل في سبيل تحقيق الوحدة الشاملة بقوة لاتقهر وبإيمان لا يتزعزع .

وإني لقوي الأمل ـ بل ، لشديد الايمان ـ بأن هذه المصيبة ستكون من أقوى العوامل التي ستوحد مشاعرنا وتقوي عزائمنا ، وستجعلنا نسير نحو الوحدة ، بكل ما لدينا من قوى مادية ومعنوية ، ومن عزم وإيمان .

وان كنت لا أنكر أن الطريق الباقي أمامنا ، لا يزال طويلا ، ومحفوفا بشتى المهاوي والمخاطر ، ولكنني آمل أملا قويا ، بل أعتقد اعتقادا جازما ، بأن روح العروبة الحقة ، ستقتحم كل العراقيل ، وستنتصر في آخر الأمـر ، انتصارا حاسما ، في كل الميادين .

اسطورة بندور

وبمناسبة الحـديث عن « الأمـل » ، أود أن أعيـد الى الاذهـان أسـطورة « باندور » التي جعلتهـا موضـوع إحدى محـاضراتي قبـل نحو ربـع قرن من الزمان .

أسطورة « باندور » هذه ، من أمتع الأساطير اليونانية ، وأشدها تضمنا لمعنى فلسفي خلاق ، انها يمكن أن تتلخص فيما يلي :

« كانت باندور إلهة الجمال ، تكونت من عطايا جميع الآلهات . فان كل إلهة من الآلهات الموجودة في ذلك الحين أعطتها شيئا من خصالها . ولهـذا السبب سميت هذه الإلهة الجديدة باسم « باندور » بمعنى « عطية الكل » .

« عندما غضب « جوبيتر » على « هركول » ، فأراد أن ينتقم منه ، فكر في إغرائه بوساطة باندور ، فسلمها علبة سحرية ، وطلب اليها أن توصلها اليه ، دون أن تفتحها وتطّلع على ما فيها .

« وحملت باندور العلبة : غير أنها لم تستطع أن تتغلب على حب الاستطلاع في نفسها ، ففتحت العلبة في طريقها ، وعند ذلك أخذ يخرج منها جيش عرمرم من المساوىء والشرور ، وينتشر في الأرض بسرعة عاصفة ، مع أزير هائل ، اندهشت باندور من كل ذلك ، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لاعادة غطاء العلبة بسرعة . . غير أنها ، إلى أن تمكنت من ذلك ، كان قد خرج من العلبة جميع الشرور ولم يبق فيها الا شيء واحد ، وكان ذلك الشيء الذي بقي في العلبة مقابل جميع تلك المساوىء والشرور . . . هو الأمل . . . » .

وبعد أن نقلت هذه الأسـطورة الى سامعيَّ ، قلت ، في ذلـك التاريـخ : مايلي : -

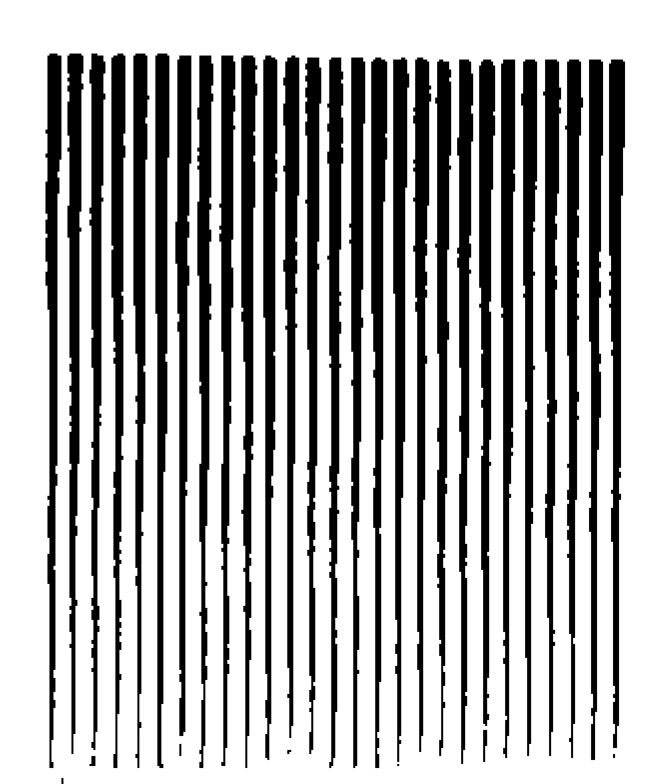
« ان حالة الوطن العربي الآن ، أيها السادة تشبه الحالـة التي حدثت عنـد انفتاح علبة باندور . . لقد انتشرت المصائب والشرور في الوطن العربي ، فلم يبق بين أيدي أبنائه غير (الامل) .

فيجب علينا ألا ننسى أن الامل هو من أثمن العوامل ، ولذلـك يجب علينا أن نتمسك بأهـدابه تمسكـا شديـدا ، فلا نترك سبيلا الى تسلل القنـوط الى القلوب .

فليكن قلب كل واحد منا شبيها بعلبة باندور : يحفظ الامل . . ولا يكتفي بحفظه فحسب ، بل يسعى الى تغذيته وتقويته ، الى أن يتحـول الى إيمان لا يتزعزع ، يدفعنا إلى العمل المتواصل ، بروح التضحية والاخلاص . . »

هذا ما كنت قلته ، قبل نحو ربع قرن ، لجمع من الشباب الناهض .

غير أني ، اليوم ، عندما أعدت قراءة هذه الأسطر شعرت بسرور حاد يغمر جوانحي ، لأني قد لاحظت بأنه لم يعد يحق لي أن أقول : « لم يبق شيء غير الامل » ، لانه خلال هذه السنوات ، لم ينقطع « الأمل » في نفوس العـاملين المخلصين فقد غمرهم تأثيره السحري الباهر ، وان جهود هؤلاء ، قضت على الكثـير من المساويء والشـرور ، وأكسبت البلاد العـربية الكثـير من المزايـا والمحـاسن . . . ولذلـك أصبح « الأمـل » الآنف الذكـر ، جديـرا ـ اليوم ـ بالتحول إلى « الايمان » . . الايمان بوحدة الأمة العربية ، وبمستقبلها الباهر إيمانا لا يتزعزع ، يجب أن يكون رائد كل منا بعد الآن . .



هل الخلاف قدر العرب ؟

ساطع الحصري



إن الشقاق وليد الأنانية ، والأنانية طبع غريزي في الانسان ، وجماح هذه الأنانية لايكبحها إلا التربية الاجتماعية المتينة ، والتشكيلات الحكومية القوية ، والايمان الديني والقومي والوطني العميق .

العربي العدد ٢١٨ يناير كانون الثاني ١٩٧٧ م

ففي كل أمة من أمم الارض ، وفي كل دور من أدوار التاريخ يظهر أناس تتغلب في نفوسهم الأنانية على العوامل التي ذكرناها آنفا ، ولكن الرأي العام من جهة ، والقوانين الموضوعة من جهة أخرى ، تعاقب هؤلاء وتعزلهم عن المجتمع بصور شتى ووسائط متنوعة ، وتجعلهم عبرة للآخرين ، فتحول بذلك دون استفحال هذه الأنانية وانتشارها بين الناس .

غير أنه يأتي أحيانا في كل أمة من أمم الأرض بعض الأدوار من التاريخ ، تضعف فيه هذه القوى الوازعة ، فتنفلت الأنانيات من عقالها ، وتتضاءل تأثيرات الرأي العام فيها ، فتقل سلطة الحكومات عليها ، وكل ذلك يؤدي إلى ازدياد الشقاق وانتشار الخلاف بين الناس .

هذا ما حدث ، وما يمكن أن يحدث في كل أمة .

وليس في طباع العرب ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم في هذا المضمار

يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة ، كما يجب علينا أن نعتقد اعتقادا جازما ، بأن طبائع الأمم لاتبقى على وتيرة واحدة على مر العصور ، وقد صدق من قال : « إن من يتوهم الاستقرار في طبائع الأمم ، كمن ينشد البقاء في الموجات التي تحدث على سطح الماء عندما ترمي حجرا فيها » .

فان الماضي لا يقيد الحال تقييدا مطلقا ، وتحقق الوحدة والاتفاق في الماضي لايكفي لدرء أخطار التفرقة والشقاق في الحال ، كما أن حدوث التفرقة والشقاق في الماضي لايمنع الاتحاد في المستقبل .

أخطاء أم طبائع أمة ؟

فيجب علينا أن نتخلص من نزعة الانشغال بالماضي كثيرا ، وأن نقلع عن الالتفات الى الوراء دائما ، فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوئنا الحالية بنقائص أسلافنا الأقدمين ، ولا أن نسعى لالقاء مسئولية نكباتنا على عاتق تاريخنا القديم ، ولايسوغ لنا ـ على وجه خاص ـ أن نستسلم إلى دواعي الخور والكسل ، وأن نتقاعس عن الكفاح والعمل ، بحجة أن الحالة الحاضرة نتيجة حتمية لطبائع الأمة ولمجرى تاريخها العام .

لا ريب في أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التي منينا بها أخيرا كانت في منتهى الفظاعة ، كما أن الاخطار التي تهدد مستقبلنا عظيمة جدا .

غير أنه يجب علينا أن نعلم العلم اليقين أن أسباب ذلك لاتعود إلى طبائع أمتنا ، ولا إلى ماضينا البعيد ، بل إنما تعود الى أخطائنا نحن .

إنني لن أحاول في هذا المقام أن أحلل وأسرد الأسباب التى أدت الى نكباتنا الاخيرة واستوجبت فشلنا الأليم ، ولن أبحث عن الأشخاص الذين يجب أن يُعَدُّوا مسئولين عن هذا الفشل وتلك النكبات ، ومع هذا سأقول بلا تردد : إن أهم الأسباب ـ في نظري ـ هو : بقاؤنا بعيدين عن التفهم والتمثل لروح العصر الذي نعيش فيه ، وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي .

غير أني أرى أن هناك سببا آخر ربما كان أبعد أثرا وأشد خطرا من كل ذلك : هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم إقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم .

إننا لم نستجمع قوانا المادية والمعنوية ، ونحشدها لتحقيق هدفنا الأسمى ، بل إنما عملنا بتراخ وتردد دون عزم قوي وتنظيم متين وإيمان عميق ، فأضعنا بذلك فرصا كبيرة وانتهينا الى فشل ذريع .

وأستطيع أن أقول : إنه الايمان العميق بإمكانات أمتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح المقرون بروح التضحية الحقيقية ، المدعوم بالأمل الذي لايقهر . . .

هذه هي أهم ما يتحتم علينا من واجبات بعد هذه النكبات .

أقول هذا وأنا ألمح معالم الخور والقنوط بادية على معظم الوجوه ، وهمسات الشك والاعتراض منتشرة في كل الجهات . . .

نعم ، إني أدرك وأشعر وألاحظ كل ذلك إدراكا تاما وشعورا عميقا وملاحظة دقيقة ، وأتألم من كل ذلك ألما شديدا .

هل نحن وحدنا ؟

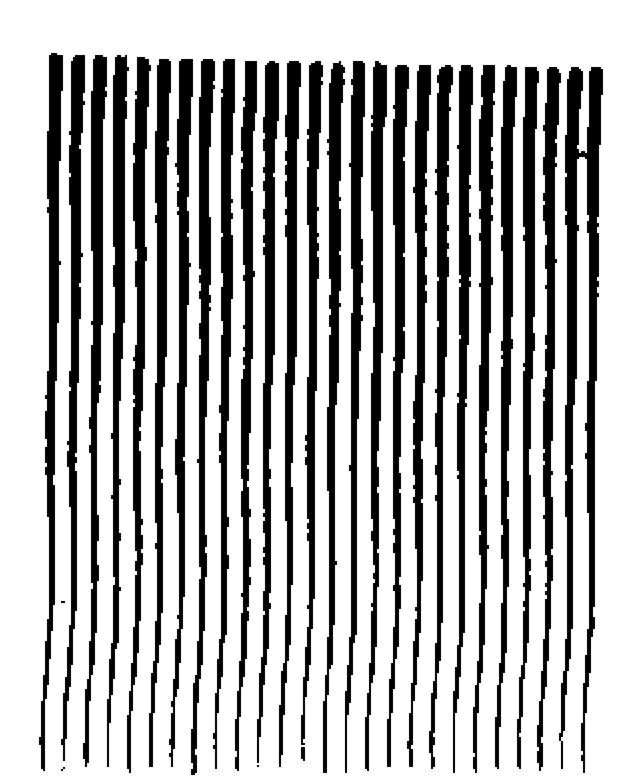
ومع هذا أرى من حقي أن أسأل بدوري : ألم تُبتل أمم كثيرة بنكبات مثل هذه ، بل وأشد منها ؟ فهل كانت نكبة بروسيا وألمانيا بعد واقعة « ينا » ـ مثلا ـ أقل هولا وفظاعة من نكبتنا الحالية ؟ ومع ذلك ألم يستطع الألمان أن يتخلصوا من آثار هذه النكبة ؟

وهل كان فشل مؤتمر فرنكفورت في ألمانيا ـ قبل قرن واحد من يومنا هذا ـ

أقل خطرا من فشل مجلس جامعة الدول العربية ؟ ألم يقل بعض الساسة ـ عقب انحلال المؤتمر المذكور ـ « إن الالمان فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم ؟ » ألم يتساءل بعض الكتاب عندئذ قائلين : « أين هي ألمانيا ؟ هل لها وجود في غير مخيلة بعض الشعراء وأحلام بعض رجال السياسة » ومع كل ذلك ، ألم تتحقق وحدة ألمانيا أمام الذين امتدت بهم الحياة بعد أن حضروا مؤتمر فرنكفورت الفاشل ؟

وبناء على هذه الملاحظات أقول بلا تردد : لايجوز لنا أن نترك مجالا لتسرب الخور والقنوط إلى أنفسنا ، ويجب علينا أن نعلم علم اليقين : أن النكبة لاتصل إلى حدها الأقصى إلا عندما تثبط العزائم ، كما أن الفشل لايصبح تاما إلا عندما يؤدي إلى التقاعس عن مواصلة العمل والكفاح . .

فعلينا أن نحذر كل الحذر من العمل على زيادة النكبة وإتمام الفشل . . بالاستسلام إلى القنوط والخور . . .



الفصل الثاني

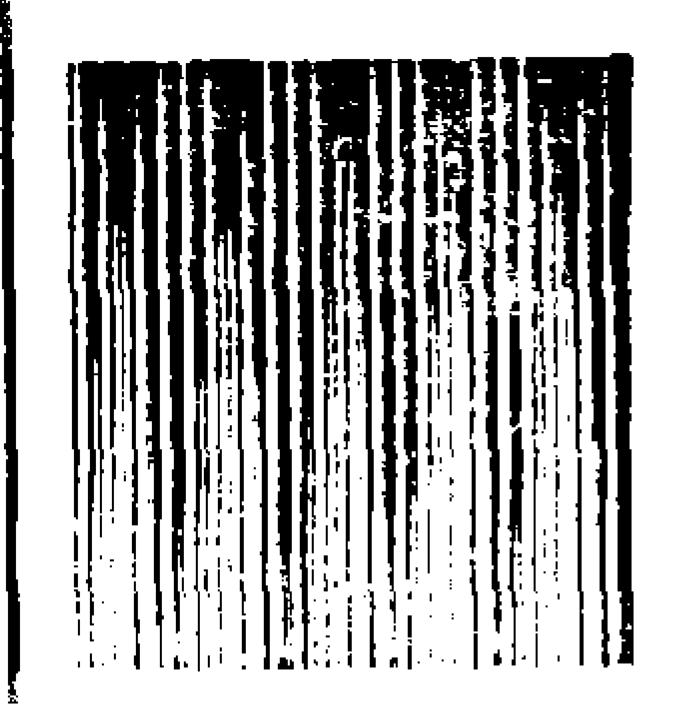
في تكوين الامم



القومية العربية :

انتماء وحركة

د. كلوفيس مقصود



العرب اليوم على عتبة مرحلة جديدة من تاريخهم ، والمرحلة المقبلة التي يجب أن نعد لها منذ الآن تتميز بضرورة ترسيخ القواعد الأساسية لبناء مجتمع أفضل لأبناء الوطن العربي ، وهذا يتطلب تعميق المفاهيم ودقة المقاييس التي نعالج بوساطتها مشاكلنا الفكرية والسياسية والاجتماعية ، فكل مرحلة جديدة يجب أن تحتوي ، بجانب خلاصة المراحل التي سبقتها ، العناصر الجديدة التي أدخلها التطور وسير التاريخ .

العربي العدد التاسع أغسطس ـ آب ١٩٥٩

إن المقاييس التي استعملناها في الماضي مهما كانت صالحة ، فان التزامنا إياها كمقاييس مطلقة ـ متخطين بذلك المراحل الزمنية والظروف التاريخية التي أوجبت علينا هذا الالتزام ـ يجمد فينا طاقة الانطلاق والتفاعل الحي ، فالأهداف مهما كانت سليمة ، والمثل مهما كانت سامية ومنسجمة مع مستلزمات الواقع ، فإنها تبقى ناقصة إذا لم يلازمها أسلوب متطور في المعالجة ، يكون أداة لتحقيق هذه الأهداف وتلك المثل ، والذي يحقق تطور أسلوب المعالجة واستيعاب التغييرات الكيفية في المجتمع وفي الطبيعة ، هو الذهنية التي تعمل لربط الأهداف بالأسلوب ، فالذهنية التي تري في الأسلوب الناحية العلمية من النشاط الانساني ، وتتصوره مستقلا عن الهدف المفروض فيه تحقيقه ، هي ذهنية غريبة عن الأهداف السليمة والمثل التي تدعي العمل من أجلها ، فإما أن تكون مضللة ، وإما أنها غير مستوعبة لما تدعي العمل من أجله .

يقودني إلى هذه المقدمة الملابسات العديدة التي تحوم حول مفاهيم القومية العربية ، والتي ، على الرغم من التزامنا كلنا بها ، فاننا نجد البلبلة مع ذلك متفشية أكثر مما هي اليوم ، في الاوساط التي ينتظر منها أن تكون طليعة التوجيه في الوطن العربي .

وما أسجله ليس الا محاولة لتوضيح بعض الملابسات ، لعلها تلقي ضوءا على بعض الأخطاء التي ارتكبتها الطليعة العربية ، ونستعين بها على تجنب أخطاء مماثلة في المستقبل ، فالاخطاء المعروفة قد تكون حافزا لتعمق الصواب ، أما الاخطاء المهملة فقد تؤدي الى كوارث ، ولذلك فالاعتراف بالخطأ هو تقرب الى الحقيقة ، أما تكديس الاخطاء فهو ابتعاد خطير عنها . فالخطأ في ذاته تكون فاعليته هدامة إذا استتر ، وبناءة إذا انكشف ، ويتوقف ذلك على الاطار الذهني الذي يحدد نظرتنا إليه .

فحركة القومية العربية حققت انتصارات عظمى ولكنها أيضا ارتكبت أخطاء ، فإما أن نعترف بها فتتوضح لنا معالم الحق في قضيتنا ، وإما أن نتجاهلها فنكون بذلك قد اقترفنا تكديس الاخطاء والابتعاد عن الاهداف التي صممنا على تحقيقها .

تحديد المفاهيم

ومن هنا تتجلى أهمية تحديد المفاهيم تحديدا واضحا ، وهذا لايحصل إلا باستعمال مسئول للكلمات المعبرة عن اختلاجات الفكر فينا ، هذا ما يحدونا

بالتالي إلى تحديد موضوعي علمي للقومية العربية التي هي الاختلاجة الفكرية الرئيسة المعبئة للطاقة العربية الحديثة .

القومية في الواقع العربي لها مدلولان :

الأول انتمائي والآخر حركي .

ففي المدلول الاول يُعدُّ كل فرد من أبناء الشعب العربي قوميا عربيا لمجرد كونه أحد أبناء الأمة العربية ، وهذه حقيقة راسخة لا تتغير ولا تتبدل فهي ملازمة لشخصيتنا ولوجودنا كشعب وكأفراد وكأمة ، فمن الوجهة الانتمائية نقول : القومية العربية باقية مادام هناك أمة عربية وشعب عربي .

أما المدلول الآخر للقومية العربية فهو حركي ، وهذا يعني أن التسليم بكوننا قوميين عرب الانتماء ، يحتم علينا مسئوليات تجعل منا في مراحل معينة من تاريخ أمتنا قوميين عربا أي عاملين في حركة القومية العربية ، وهذا يعني أن انتماءنا لأمة يحتم علينا واجبات ومسئوليات نحوها تتحدد بنوع المشكلات التي تواجهها الأمة في حقبة معينة من تاريخها ، فإذا كانت الأمة مجزأة إلى دويلات كما كان الحال في ألمانيا وايطاليا في القرن الماضي ، تحدد العمل القومي بتحقيق وحدة الامة ، أما إذا ابتليت الامة بدول أجنبية تسيطر على مقدراتها فيتوجه العمل القومي نحو تحرير الأمة من هذه السيطرة ، كما حدث في كثير من البلدان الاسيوية ، وكما لايزال يحدث في بلدان إفريقيا ، وقد يتحدد العمل القومي بتحقيق الوحدة والتحرر معا كما هو الحال في الأمة العربية ، القومية العربية في مدلولها الحركي تتحدد بنوع المشكلة التي تواجه الأمة ، ولذلك فالقومية العربية بالمدلول الحركي تسعى لان تكون الامة دولة واحدة ذات سيادة أي إرجاع الامة الى كيانها الطبيعي والقضاء على عوامل التجزئة فيها .

ويتلخص هذا التوضيح النظري لمدلول القومية العربية فيما يلي : أنا عربي أي أنا أنتمي الى أمة عربية واحدة وأمتي مجزأة الى كيانات لاتمت الى ما يجب أن يكون عليه الواقع العربي ، وان أقطارا عربية عديدة ما تزال خاضعة لهيمنة الاجنبي وأن هذه التجزئة وهذه السيطرة ، في حال رضوخنا لهما ، يكون الرضوخ تشويها للأصالة ، إذ أنه تشويه لواقع الامة ، لذلك فأنا قومي عربي أي أنني في صميم حركة تعمل لوحدة أمتي وتحررها الكامل ، وعندما تتحرر أمتي وتتوحد أجزاؤها ، عندئذ يصبح إعلاني « أنا عربي » ، ليس انتماء إلى قومية فحسب ، بل انتماء إلى دولة ، ويصبح الانتماء واقعا قانونيا شاملا بكل معنى

الكلمة ، وعندما يتم هذا الواقع لا أعود بالمدلول الحركي للقومية عربيا ، لكنني أستمر في المدلول الانتمائي قوميا وعربيا .

فالقول بأنني عربي يدل على قوميتي العربية ، وفي حال تكامل الواقع القانوني للأمة في دولة يصبح القول بأنني عربي يعني جنسيتي العربية ، فالقومية العربية بالمدلول الانتمائي واقع كياني وبالمدلول الحركي واقع مرحلي تتحول فيه الدولة إلى أمة .

إن الطاقة التي جعلت منا ملتزمين بحركة القومية العربية تتحول كيفيا عند صيرورة الدولة العربية إلى وطنية ، إذ أن مسؤوليتنا تجاه الدولة تختلف عما كانت عليه إبان نضالنا القومي ، والوطنية تعني الاستعداد للدفاع عن الدولة العربية التي تنتمي اليها ، نحن قوميون عرب مادمنا أسيادا في أنفسنا ، ونحن وطنيون عرب باستعدادنا للدفاع عن كيان دولتنا العربية الموحدة ، فالقومية العربية الحركية تصبح وطنية عندما تتكامل المرحلة القومية .

الوحدة العربية

وعلى ضوء هذا التعريف الاساسي للقومية العربية تتفرع مفاهيم يجب توضيحها حتى تتبدد نواحي الغموض فيها ، وحتى يتوارى استعمالها الخاطيء ، فكلمة « وحدة عربية » تعني أن الامة العربية ، لكونها مجزأة الى كيانات معترف بها دوليا ، ليست تعبيرا عن الواقع القومي الذي ننتمي اليه ، فالعمل للوحدة هو اذن العمل لجعل الامة ذات سيادة واحدة وكيان واحد .

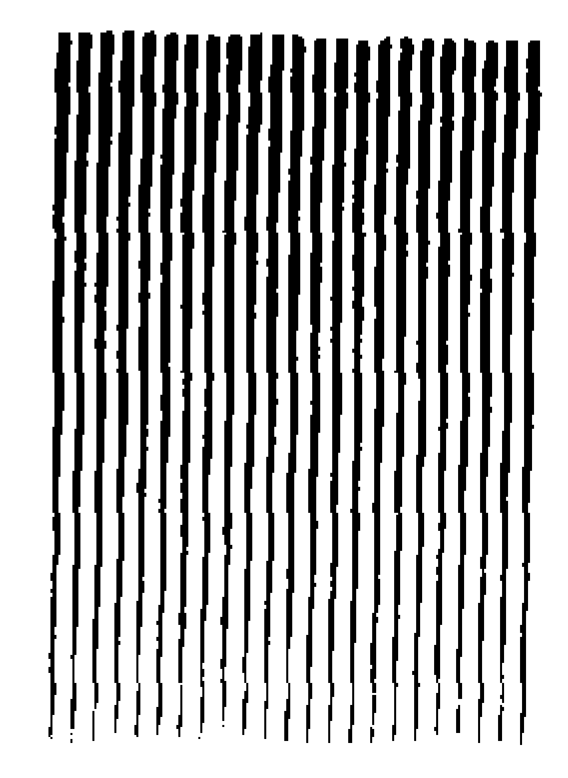
أما الخطأ الذي يحصل من قبل بعض العاملين للوحدة ، فهو أنهم يضيفون الى هذا المعنى اجتهادا معينا في تنظيم الدولة العربية الموحدة ، فتصبح المركزية ملازمة للوحدة ، والاتحاد الفدرالي يظهر وكأنه عمل خارج نطاق العمل الوحدوي ، هذا خطأ أساسي ، لان حقيقة الفيدرالية أو المركزية أنها صيغتان متعلقتان بنواحي التنظيم ، وبأشكال الادارة العامة للدولة الموحدة ، ولذلك فالوحدة هي من صميم العمل القومي ، بينما المركزية أو الفيدرالية من متفرعاته .

والقومية العربية تفهم في بعض الاوساط وكأنها قومية عنصرية ، وهذا المفهوم للقومية خاطيء وخطير ، فالانتماء للقومية العربية يتحدد بكون الفرد في الوطن العربي قد ربط مصيره بمصير الامة ، قد لا يعتقد البعض بهذا إذ يحسبون

لاسباب وملابسات ومخاوف تاريخية أن مصيرهم مرتبط بالمصير القطري ، ولكن بمجرد أن القطر سيصبح جزءا من الدولة العربية ، يصبحون هم مواطنين في هذه الدولة متساوين في الحقوق ، فبوساطة هذا التحديد يصبح الكردي في العراق ، والأرمني في لبنان وسوريا والقبائل الزنجية في جنوب السودان ، والبربر في المغرب العربي ، عربا بانتمائهم للدولة العربية دون أن يعني ذلك تذويب حقوقهم الذاتية ، فالذي يحدد كون انسان ما عربيا هو انتماؤه الى الدولة العربية ، وقد يكون بين هؤلاء من يدعو لخلود الكيانات القائمة ، أو يدعى انتماء إلى القومية المحددة عنصريا بالنسبة له ، عندئذ يكون الموقف القومي العربي السليم هو أن يعتبرهم مضللين ، وتكون مسئوليتنا توجيههم الى فهم حقيقة القومية العربية وحقيقة الاهداف التي تسعى الحركة الى تحقيقها ، وهذا يفترض حتما أن رجوع هؤلاء عن ضلالهم يؤدي بهم الى العمل القومي العربي والسعي لتحقيق الوحدة للامة وتحررها .

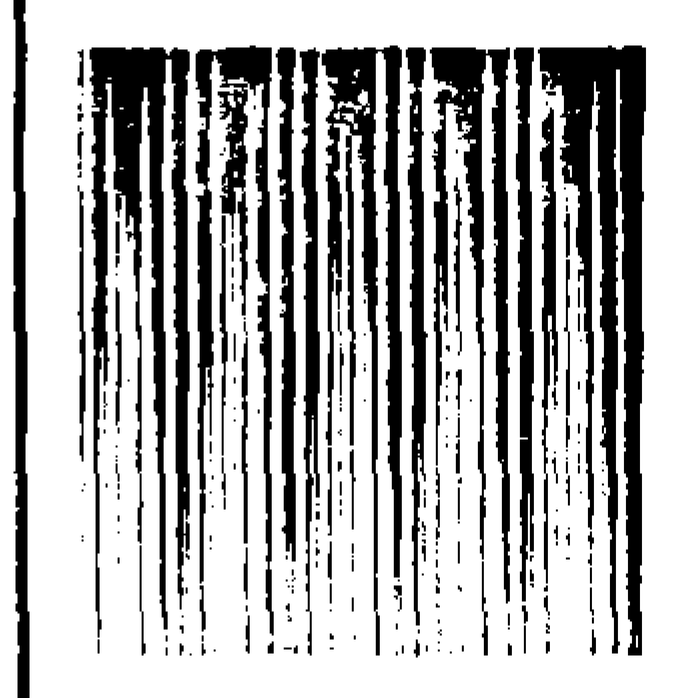
هذا الافتراض المستند الى اقتناع باصالة الانتماء هو الذي يجعل منا مقاومين بعنف للاستيلاء الفرنسي في الجزائر واستيطان حوالي ثمانمائة ألف أوروبي فيها ، وكذلك استيلاء الصهاينة على فلسطين . هذه الاستيطانات المزيفة أتت لتجعل من الأمة العربية جيوبا تكون بمثابة نقط انطلاق للاستعمار ، حتى يؤخر وحدة الأمة ويبقيها تحت سيطرته المباشرة .

وهذا يؤدي بنا إلى تقرير أن استغلال العنصرية الانفصالية ، والتركيز على بقاء الاوضاع الكيانية في الوطن العربي هما أثران لموقف الرجعية العربية ، ولذلك فهي مناوئة لثورية القومية ولتقدميتها وبالتالي لتطبيقها ، فالنضال ضد العمل الانفصالي والمحافظ ، هو نضال ضد تيار الجمود والتحجر والتضليل .



لغتنا العربية قوام قوميتنا

د. عبدالرحمن البزاز



هناك دون أدنى ريب ، واجبات مفروضة على كل هيئة ، أو مؤسسة ثقافية ، وعلى كل شخص مثقف مدرك لتبعاته القومية ، لتمكين « اللغة العربية الفصحى المشتركة » من شق طريقها في وضوح وجلاء لكيما تتوغل في كل ميادين الحياة ، ولتكتسح اللهجات واللغات الدارجة جميعا ، ثم لتستقر وتثبت بحيث تصبح آخر الامر حقا لغة حية مشتركة بين أبناء هذه الامة العربية الكبيرة الواحدة كلهم ، وتجمعهم في اطارها العام ، وتؤلف بينهم أجمل تأليف ، وتربطهم في مشرقهم ومغربهم بأوثق رباط ، وتعبر - أو على الادق - يعبرون بها عن شتى متطلبات حياتهم التي يحيونها في مجالات الحياة دونما استثناء .

العربي العدد ٥٢ مارس - آذار ١٩٦٣ م

فنحن في هذا الشأن بحاجة ماسة الى هذا الوعي القومي ، والتيقظ اللغوي والشعور العميق المتأثم بمغبة الانحراف ، نحن بحاجة قصوى الى آذان حساسة تؤذيها الرطانة ، وأذواق سليمة تمج العجمة وتنبو عنها ، وألسنة مبينة ذربة ، مرنت على هـذه اللغة ، وأتقنت مخـارجها ، وحـرصت على النـطق الفصيح بحروفها كاملة ، وسالت فيها ألفاظها وتعبيراتها سهلة عذبة محببة .

ونحن ـ فوق ذلك ـ بحاجة قصـوى الى احساس قـومي يرى في التصنـع والامالة و « الاستعجام » ، « والتفرنـج اللغوي » ، والاستمسـاك باللغـات الدارجة ، اعوجاجا يجب تقويمه ، وخروجا على وحدتنا القومية يجب القضاء عليه .

اننا بحاجة الى خلق الوعي العميق في الفرد ، حتى يرى هذا كله منكرا عليه أن يقومه ويسدده بكل ما أوتي من قوة وسلطان ، وأن يحس تلقائيا بأن الامر في ذلك من أوجه المعروف المطالب بالامر به ، والمنهي عن الخروج عليه .

ان حاجتنا الى هذا الوعي الفعال شديدة ، وطريقنا للوصول الى اقامة هذا الوعي ـ وهو حقيقة تامة الثبوت ـ طويل ومحفوف بالمصاعب والعقبات ، ولكنه طريق لابد لنا أن نسلكه وأن نسير في كل دروبه الى أقصى مداها ، وأن نزيل عنه ـ مهما كانت الآلام ـ كل ما يعترضنا من العثرات والاشواك .

ان حاجتنا هذه ماسة ، ما في ذلك أدنى ريب ، ومن الاجدى أن أكتفي بذكر أمثلة واقعية كنت أحد شهودها ، وذكر نماذج صارخة تتكرر مثيلاتها كل يوم ، ومنها يتضح جليا عظم حاجتنا الى هذا الوعي ، ومنها يستبين مدى الجهد الجبار الذي ينتظرنا للتغلب على كل الصعاب العديدة التي لابد لنا من التغلب عليها لنستطيع تحقيق ما نريد . .

العامية في الحياة العامة :

كنت في أواخر عام دراسي أناقش طالبا جامعيا في سن متقدمـة في احدى الكليات التي كانت العناية بالعربية والحفاظ عليها احدى جليل غاياتها ، وكان موضوع الدرس « المجتمع العـربي » ولقد دهشت حـين وجدت الـطالب لا يستطيع التعبير عن أفكاره بغير اللغة الدارجة على أسوأ صورها ، فقد بدا لي أميا بكل معنى الكلمة ، منعزلا عن العالم المعاصر كل الانعزال ، ولم يستطع التعبير عن القومية العربية مثلا الا بقوله : « القومية بتاعتنا » ولقد قلت له إن

القومية العربية تفرض عليك أن تقول : « قوميتنا » ، باضافة ضمير الجمع « نا » وحذف كلمة « بتاع » لأن قوام القومية اللغة ، وحين تهمل لغتك تكون قد أهملت قوميتك .

ولقد ازدادت دهشتي حينما وجدته يجادل بشدة في أنه ليس من الضروري أن يترك لهجته الدارجة ليصبح قوميا عربيا ، إنه قد تعود هذه اللهجة التي يتحدث بها ، وهو لا يحسن الحديث بسواها ، بل لا يريد أن يغيرها من حيث الاساس ، ولقد تكشف لي فيما بعد أن هذا الطالب لم يكن بدعا من الطلاب ، فلقد كان له نظراء كثيرون لم يستطيعوا التعبير السليم عن موضوعات قومية واجتماعية وثقافية عامة مطروقة ومتكررة بغير اللغة الدارجة التي ألفوها ، وطبيعي أن يحز اكتشافي لهذه الحقيقة في نفسي ، وأن يزيد في شعوري بلزوم مضاعفة الجهد للقضاء على هذه الظاهرة المؤسفة ، وإني لأعلم يقينا بأن نصحي للطالب في تقويم لسانه ، واصلاح لغة حديثه ، لن يجديه فتيلا ، فما لم تمتلىء أذناه بالاستماع الى الفصحى في قاعات الدروس كلها ، وما لم يحرص الاساتذة كلهم على مناقشته بها ، وما لم يفتح قلبه لحب الفصحى والايمان بها ، وما لم يُيَسر له سبيل الوصول اليها والاستمتاع بأدبها ، فلن تتغير الحال كثيرا ، وكان من الطبيعي أن أشعر حينئذ ـ كما أشعر اليوم ـ أن ذلك فوق طاقة الفرد الواحد ، وأن لابد لذلك من أن تتضافر جهود الاساتذة جميعا في تلك الكلية بحيث يحاضرون بلغة فصحى ، ويناقشون الطلاب بها ، ولا يرضون منهم سواها ، وأكثر من ذلك ـ كما شعرت حينئذ ـ أن لابد من أن يمهد لهذا كله في الدراسة الثانوية ، بل في مراحل الدراسة كلها ، بالاضافة الى الجهود الخاصة التي يجب أن تبذل من قبل هيئات عديدة أخرى . . .

وفي رحلة ثقافية الى ليبيا وتونس ، وفي احدى الليالي أثناء ندوة للنقاش في شئون قومية ثقافية ، تنقل الحديث سريعا من موضوع الى آخر ، وتركز آخر الامر في ضرورة اشاعة اللغة العربية المشتركة بين أبناء الامة العربية كلها ، ولقد وجهت عدة انتقادات الى احدى اللغات الدارجة وانتقدت شيوع استعمال لفظ « مَرْسِي » الفرنسي في الحياة اليومية ، وكان من اللازم أن نشيع كلمة « شكرا » لنقضي على تلك الكلمة الاجنبية ، وفي غمرة الحديث انبرى لي أحد أعضاء الندوة وهو يقول مستنكرا : « هل يكون من الادب وأنا أخاطب سيدة مثلا أن أترك كلمة « مرسي » الرقيقة لاستعمل بدلها كلمة « شكرا » الخشنة ؟ ! ثم أضاف قائلا : « قد يكون من المعقول أن أستعمل هذا اللفظ

الاخير وأنا أخاطب رجلا ، أما أثناء التحدث الى بنات الجنس الرقيق فلا . . ذلك لا يجوز . . وليس من المعقول أن يطلب منا أن نفعل هذا . . !! » .

ولقد كان الشاب المتحمس لكلمة « مرسي » جادا فيما يقول ، ولم يُرِد العبث أو الهزء ، كانت نبرات صوته ، وأمارات وجهه ، تدل على ذلك تمام الدلالة ، ان « شكرا » كلمة خشنة لا تصلح لان نخاطب بها بنات الجنس اللطيف ، ولا بأس من استعمالها مع أبناء الجنس الخشن دون سواهم . . لقد كان المعترض ـ وليس لدي شك في طيبة قلبه وسلامة نيته ـ صريحا في التعبير عن احساس عميق يحسه الكثيرون تجاه لغتهم العربية ، لئن آلمتني أفكاره لقد سرتني صراحته ، وأتاحت لي الفرصة للرد على مثل هذا الهراء ، وأحسب أن من الحق عليَّ أن أعترف بأن ما أصابني من انفعال في تلك الليلة أخذ مني كل مأخذ ، وبقيتُ وأنا أتقلب على فراشي أسائل نفسي : كم من الجهد ترانا بحاجة اليه لنجتث جذور أمثال هذه المفتريات والاوهام ؟ وكم من الطاقات يجب أن نبذلها لنعوِّد الناشئة أن للغتهم العربية جمالها ، ولها موسيقاها ، وعذوبتها ، وأنها تصلح للخطاب والحديث مع الرجال والنساء على حد سواء ؟ !

وقبل فترة ليست طويلة من الزمن ، وفي أثناء انعقاد مؤتمر المحامين العرب في القاهرة ، وفي احدى لجان المؤتمر ، أخذ فريق من المحامين العرب يتحدثون وكان موضوع النقاش فلسطين وما يجب أن يُتخذ بشأنها من قرارات بلغاتهم الدارجة التي بدت غير مفهومة تمام الفهم من قِبل فريق آخر من المحامين من البلاد العربية الاخرى ، وشعرت أن من واجبي أن أنبه الزملاء بأنه لا يحسن بالمحامين العرب ، في مؤتمرهم خاصة ، أن يتحدثوا بغير العربية الواحدة المشتركة ، لانها الوسيلة التي تجمعهم ، وبها يمكن نقل أفكارهم كاملة بعضهم الى بعض ، ولقد قُبل هذا الرأي من حيث المبدأ ، ولكني كنت أشاهد الكثيرين يخرجون عليه في التطبيق ويلتزمون لغاتهم الدارجة ، وكنت أشعر بألم ممض وأقول : « كيف تخفى هذه الحقيقة البديهية عليهم ؟ » ، وكنت أسائل نفسي : « اذا كان المحامون العرب لا يستطيعون أن يلتقوا فعلا على هذه اللغة الواحدة المشتركة ، فما السبيل الى التقائهم حول ما كانوا يتنادون به في لزوم الالتقاء عليه ؟ ! ان شعار المحامين العرب « الحق والعروبة » ، والعروبة تعني ، أول ما تعني ، الايمان بهذه اللغة العربية الواحدة ، والحرص التام عليها ، وجعلها ، دون سواها ، لغة الحياة العربية المشتركة في كل ميادين الحياة »

وقبل فترة من الزمن ضمَّني اجتماع مع فريق من كبار المفكرين العرب هم

في القمة بين المثقفين ، صفوة من الاساتذة من أصحاب الدراسات النظرية والانسانية ، وفريق آخر ممن كانوا أساتذة ، وأكثر من أساتذة ، ـ ان كان ثمة مقام فوق مقام الاستاذ أو أكبر منه ـ وكان موضوع المناقشة خطيرا وجديا ، ولقد أدلى كل برأيه بطريقته الخاصة وبأسلوبه ، وجرت مناقشات لم تخل من العنف أحيانا ، ولكن الذي راعني حقا ، وآلمني أكثر من كل شيء ، أن عددا لا يستهان به من هؤلاء السادةكانوا يلتزمون اللغة الدارجة في التعبير عن أفكارهم بطريقة ـ هي في تقديري ـ لا تتناسب مع المثقفين أصلا ، ولقد بدا لي بعضهم راطنا بشكل عجيب ، فهو يمط في « واو العطف » ـ هذا الحرف القصير الخفيف الهين ـ ويطيله بحيث صارت نبراته الصوتية تذكرني بلهجات بعض الارستقراطيين من الانجليز الذين كانوا يحسبون أن مد حرف العطف في لغتهم دليل على العمق والنبل ، وكان الكثيرون ممن ضمهم هذا المجلس يخرجون الحروف من غير مخارجها ، أو يبدلونها بغيرها ، فالذال كانت زاء ، والظاء كانت هي الاخرى زاء مفخمة ، والثاء كانت سينا ، فكلمة ثقافة ومثقف ـ وهي كلمة ترددت في تلك الجلسة كثيرا ـ كانت تنطق « سقافة » و « مسقف » ، وكان أكثرهم حين يريد أن يقول ما معناه « أيضا » ، أو « مع ذلك » يؤثر كلمة « برضو » وكان بعضهم يصرفها فهي « برضو » حينا ، و « برضك » حينا آخر ، ولست أخفي أن هذه الالفاظ وسوء مخارج الحروف كانت تشغلني أحيانا عن تتبع الموضوع .

ولقد أبصرت أن لبعضهم ولعا شديدا في استعمال الكلمات والمصطلحات الاجنبية من غير ما ضرورة ، ولقد أفرط بعضهم في استعمالها بحيث تكاد الكلمة الاجنبية تصبح عنده الكلمة الخامسة بعد كل أربع كلمات عربية ، أو العاشرة بعد كل تسع كلمات ينطق بها .

وعلى الرغم من أن ما اتفق عليه آخر الامر كان سليما في جملته فيما أري ، فقد بقي مع ذلك يحز كثيرا في نفسي ـ والحق أقول ـ ما شاهدته من استهانة هذه الفئة المستنيرة باللغة العربية الفصحى ، وحِرْص الكثيرين من أعضائها على الاستمساك باللهجات المحلية ، والحفاظ على مخارج حروفها المنحرفة ، وميل البعض الآخر الى المغالاة في استعمال المصطلحات الأجنبية وترديدها حين كانت الالفاظ العربية والمصطلحات العربية قد استقرت تمام الاستقرار ، وهي تغني في اداء المعنى كل غنى .

ولقد بقيت أسائل نفسي بعد تلك الاجتماعات وفي خلالها ـ وكان لزاما علينا

أن نجتمع عدة مرات ـ بقيت أسائل نفسي مع شيء من الألم الدفين : كم من الوقت ترانا بحاجة اليه لنشيع الوعي السليم بين هذه الصفوة ذاتها ؟ ! كم من الجهد ترانا بحاجة اليه لإيقاظ الضمائر وهزها هزا عنيفا بحيث تحس ذاتيا أن ليس من « الثقافة » أن تستحيل « ثاء » الثقافة سينا ، وليس من الثقافة القومية العربية أن نحرص اليوم على انحرافات اللغات الدارجة حين نجتمع ، خاصة حين نكون من أقطار عربية مختلفة ، لنعالج بعض قضايانا الثقافية والقومية الكبرى .

في مجمع الخالدين :

وثمة مثال آخر صارخ يشعرنا بعظم الحاجة الى مزيد من العناية في لغتنا العربية الفصحى ، ومزيد من اليقظة القومية ، بل مزيد من الشعور المتأثم الحساس المدرك لما تجنيه الاستهانة بالفصحى من آثار سيئة على مستقبل قوميتنا العربية ، ما نشرته « جريدة الاهرام » في عددها المؤرخ في ٣٠/ ١٠/ ١٩٦٢ تحت عنوان بارز : « الرجال وحدهم ينجحون في انتخابات المجمع اللغوي » .

وبعد وصف لما جرى في جلسة اختيار أعضاء جدد قال الكاتب ما يلي بالحرف الواحد : « قرر الدكتور مدكور قانونية الاجتماع ، ووقف عضو يقول له رأيا يريد أن يقوله ، قال : « احنا مش عاوزين محضر الاجتماع ده يروح الصحف ، عاوزين نعمل احتياطاتنا اننا ما نُحُطُوش قدام الصحافة . الانتخابات دي حساسة ويعز علينا ان واحدا من المرشحين يعرف انه ما خدش غير صوت والاصوتين أو أربعة . . المحضر يتكتب بالتفصيل هنا لكنه ما يخرجش بره ، ما نحطوش أمام الصحافة » .

وأنا أترك لكل قارىء منصف أن يكوِّن رأيه عن هذه الواقعة الصغيرة . . أيجوز في مجمع اللغة العربية ، « مجمع الخالدين » كما يسمى أحيانا ، أن تكون لغة الخطاب هكذا ؟ ! واذا كان « صحفي » قد لفق الكلام أو افترى في الحديث ، أفيجوز لجريدة الاهرام ، وهي الجريدة الوقورة ذات التاريخ الحافل ، أن تنشر في احدى صفحاتها البارزة مثل هذا الكلام وعن المجمع اللغوي ، وبمثل هذا الاسلوب ؟ !

وقد يكون من المناسب أن نختتم هذه الملاحظات بما ورد في اعلان كبير

واضح عن « فندق كليوباترا » غداة افتتاحه يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٩٦٢ ، ولنترك الان جانبا اهمال الذوق العربي ، وامتهان اللغة العربية في هندسة الفندق الجميل كله ، بحيث أعطى البروز الكامل للحروف اللاتينية باسم الفندق ، بحيث صارت الحروف الاجنبية جزءا من الزخرف « الديكور » ، ولننظر الى ما جاء في الاعلان لتشويق الزبائن لزيارة هذا الفندق . . .

الفندق مزود بالكامل . .

كافيه - بار سيزار . .

كوفي شوب « تروبيكانا »

على السطح البانوراميك . . . الخ »

وأنا أتساءل : وأحسب أن من حق كل قاريء يحترم لغته وأمته أن يتساءل : ألم يكن بالامكان استبدال كلمات عربية بهذه الكلمات الأجنبية ؟ ! وهل هذه الالفاظ من مسميات العلوم والمخترعات الحديثة التي لا نجد لها مقابلا في اللغة العربية ؟ ! وماذا سيقول السائح حين ينزل هذا الفندق فيبصر عنوانه واضحا جليا بلغته ، ولا يرى اسمه بلغة البلاد التي يزورها ؟ أوَلاَ يشجع ذلك على الاعتقاد بأننا نمتهن لغتنا ، ونمتهن بالتالى كرامتنا القومية ؟ ! أو لم يَـأْنِ لنا أن نحسب لهذه الاعتبارات - وهي وثيقة الصلة بكرامتنا ومشاعرنا - حسابا أوفى ، وأن نسبغ على مبانينا العامة وعماراتنا ، وكل مظاهر حياتنا ، ما ينمُ عن وجود شخصيتنا ، وطابعنا في الحياة ؟ ان هـذه الامثلة الواقعيـة والشواهـد الفعلية - وهي قليل من كثير - ، تكفينا فيما أحسب للتدليل على عظم التبعة الملقاة على عـواتق المسئولـين لايقاظ الشعـور القومي السليم ايقـاظا كـاملا ، واحـالـة الشعارات وعبارات التنادي الى حقائق وجود نحياها ، وإنه لمن فضول القول أن نكرر هنا بأن يقظتنا القومية لن تكون صادقة وتامة ما لم يصبح الحرص على هذه اللغة العربية الفصحى المشتركة - وهي أقوم دعائم قوميتنا وأخلدها - عميقا وتـاما ، وعـاما لكـل أبناء الامـة العربيـة كافـة ، والمثقفين منهم عـلى وجـه التخصيص .

تبعات مفروضة :

ولاشك بأن هناك تبعات مفـروضة عـلى كثير من المؤسسـات ، والجهات الرسمية والاهلية كوزارات الاعلام والثقافة ، فانها المسؤولة الاولى عن وسائل

النشر والاعلام ، وهي الموجه للشعور القومي ، والمسئولة عن سداد هذا التوجيه وفاعليته ، وهي فوق ذلك ، تملك من وسائل التثقيف والتوجيه عن طريق الاذاعة والتلفاز والمجلات والصحف والنشرات والكتب ووسائل الفنون العديدة الاخرى طاقات جبارة تستطيع بها ـ لو أدركت عظم رسالتها تمام الادراك ، واستغلت قواها وطاقاتها على أحسن وجه ـ ان تأتي بالمعجزات .

ولنحاول الان أن نشير الى بعض ما يجب أن تفعله الجهات المسئولة عن « الراديو » و « التلفاز » مثلا ، لتخدم اللغة العربية ، وتعمل على اشاعتها فصيحة سليمة مستساغة . .

١ ـ يجب تكوين لجان فنية تحرص على امتحان المذيعين والمذيعات ومقدمي المناهج على اختلاف أنواعها بحيث يتأكدون من سلامة لغة المذيع أو المذيعة ، وسلامة اللغة تتطلب معرفة بنحو اللغة العربية وصرفها ، وادراكا جيدا لاساليبها وطرق القائها ، كما يجب التشديد على اخراج الحروف من مخارجها ، ويجب أن يمرن طالب الانتساب الى الاذاعة أو التلفاز تمرينا دقيقا على اتقان التلفظ الفصيح بحيث تكون الضاد ضادا ، والظاء ظاء ، والجيم جيما ، والقاف قافا ، وما الى ذلك من حروف عَمَّ اخراجها من غير مخارجها ، أو اختلط نطقها بحروف غيرها ، ولابد لكمال تمرين هؤلاء من الافادة من « علوم تجويد القرآن » لمعرفة موسيقى اللغة العربية ـ وللغة العربية موسيقاها الخاصة بها ـ معرفة تامة ، ولابد من الاستعانة بكبار قراء القرآن الكريم لانهم في واقع الحال ينطقون العربية على وجهها السليم ، وبأحسن صورها .

٢ ـ يجب تحاشي الالفاظ الدارجة غير الفصيحة مما يوجد له مقابل سليم في اللغة الفصحى ، فليس من المعقول أن نسمي الجسر (كوبري) ، وأن نسمي الصيدلية مثلا « أجزخانة » وتسمى الغرفة أو الحجرة « أوضة » وأن نسمى الحذاء « جزمة » أو أن نسمي المسرح « تياترو » أو الجريدة « جرنال » ، أو القدح « جلاس » أو الغبار « طوز » وما الى ذلك من عشرات الكلمات الدارجة التي يجب أن نميتها ، ونحيي بدلها وبسرعة ، الكلمات العربية الفصيحة .

٣ ـ يجب أن نتحاشى الصيغ والتعبيرات غير السليمة والمترجمة من اللغات الاجنبية فنقول : (الافريقي الاسيوي) بدلا من « الافرو آسيوي » والانكليزي الامريكي ، بدلا من « الانجلو أمريكان » ، وأن نقول مليونين مثلا بدلا من اثنين مليون وما الى ذلك من تعبيرات أخذت تشيع في لغة الصحافة والاذاعة بشكل مزعج ومشوه للغة العربية .

٤ ـ يجب أن يكون الالقاء على أساس من العربية السليمة ، ذلك أن كثيرا من المذيعين والمذيعات أخذوا في السنين الاخيرة خاصة ، خشية اللحن ، يغالون في التسكين وجعل الجمل قصيرة مبتورة بحيث تُخلّ بالمعاني فيقفون قبل تمام المعنى للجملة ، ويُفقدون اللغة العربية جمالها وموسيقاها ، بحيث تبدو للسامع وكأنها بنغم واحد ، وانه لمن المؤسف حقا أن تشيع هذه الطريقة في اذاعات عربية عديدة .

٥ ـ هناك عدد كبير من الكلمات الدارجة أو التعبيرات ذات أصل عربي وانما حرفها الاستعمال الدارج ، ويجب على الاذاعات تقويمها باستعمال الصيغ السليمة ، في الاحاديث والحوار وكل وسائل الفنون القولية ، فكَيِّس بدلا من « كويس » وما عليه شيء بدلا من « معلهش » وما في شيء بدل « مفيش » ، ومتاعه بدل « بتاعه » والبارحة بدل « امبارح » وزوجي بدل « جوزي » وزوج بدل « جوز » وحفر بدل « فحر » وصفّق بدل « سقّف » وهذه الساعة بدل « هَسَّة » ، وهذا الان بدل « هل لا » أو « هلق » كما ينطقها بعض سكان الجبال في لبنان .

٦ ـ هناك مشكلة الحوار في التمثيليات ، ويجب على المختصين العمل على ايجاد حل سريع لها ، وعندي أن الخطوة الاولى تكون باكثار التمثيليات التاريخية التي يصح أن يجري الحوار فيها باللغة الفصحى ، ثم الاكثار من الترجمة عن اللغات الاجنبية ليصبح من الطبيعي أن يكون الحوار فيها باللغة العربية الفصحى .

وفيما يتعلق بوصف الحياة اليومية الراهنة ، باستطاعة المؤلفين البارعين أن يقللوا ما استطاعوا من الالفاظ والصيغ الموغلة في عاميتها وانحرافها عن اللغة الفصحى ، ثم يتدرج الامر بحيث تُعوِّد الاذان على استماع الحوار بلغة عربية سليمة مبسطة ، مسكنة ، بحيث لا يبدو نابيا صدورها عن عامة الشعب ، ولكن المؤسف أن المسير في هذا الشأن متجه الى عكس الحال ، وصار كثير من الروائيين والقصصيين يغرق في استعمال الالفاظ العامية والتعبيرات غير السليمة ، بحيث صارت لا تنطبق فعلا مع واقع الطبقات العامة التي أخذ مستواها بالارتفاع فعلا ، وصارت تُؤثر ـ على الرغم من عجزها أحيانا ـ استعمال الفصحى ، والتلذذ بالانصات اليها ، فليست المشكلة في هذا الشأن مشكلة العامة أنفسهم ، بل المشكلة الكبرى هي مشكلة الخاصة من هؤلاء الكتاب والفنانين الذين يفضلون استعمال اللغة الدارجة ، ودعونا نضرب مثلا

واحدا : هل كان من المعقول أن يترجم الحوار والغناء في « أوبريت » « الارملة الطروب » باللغة الدارجة ؟ وهل كان نابيا أن نترجم ما جرى على ألسنة نبلاء فرنسة ودبلوماسييها بلغة عربية سليمة ؟ أو ليس الحرص على اللغات الدارجة والتنكر للفصحى هو العامل الاول في هذا الوضع المشين ؟؟ . .

٧ ـ ان لغة الاغاني والاناشيد سائرة مع الاسف الشديد الى ايثار اللغة الدارجة ، ولا أدلَّ على ذلك من أن كبار المغنين الذين شهرتهم القصائد الرائعة التي غنَّوْها في مطلع حياتهم الفنية ، وخُلدوا بسببها ، لم يعد لهم انتاج يذكر باللغة الفصحى في السنوات الاخيرة ، ثم إنه من المؤلم حقا أن تكون معظم الاناشيد باللغة الدارجة ، فهل عقمت اللغة العربية بحيث أصبحت غير قادرة على أداء رسالة الفن ، وغير صالحة لان تكون لغة الغناء والنشيد ؟ ! ان هذه الظاهرة جد خطيرة ، ولابد من التنبه اليها ، بل لا بد من البحث العميق لمعرفة أسبابها ، وانها على كل حال اساءة بالغة للغتنا وقوميتنا العربية لا أدري كيف غفل المسئولون عنها ! !

٨ ـ وحتى لغة الاطفال يجب أن تكون أقرب ما تكون الى الفصحى ، وكم يجدر بنا أن نعلم أن شيوع بعض الصيغ العامية بدأ من حيث الاساس بلغة الاطفال ، ثم نما معهم وصار مستساغا حتى من قبل الكبار ، فلماذا يُعَلَّم الطفل « مامته » بدلا من أمه، و« طنط » بدلا من خالته أو عمته ، أو « أونكل » بدلا من عمه ، « وشقفوا ياولاد » بدلا من صَفِّقوا ، ولماذا تتكرر كلمة « برافو » على أسماعهم حين يجيد أحدهم الاجابة على ما يوجه اليه من سؤال ؟ ثم لماذا يُعلِّمون الاناشيد باللغة الدارجة وكان بالاستطاعة أن توضع لهم أناشيد جميلة مفهومة ومبسطة ولكنها مع ذلك بلغة عربية سليمة ؟ !

٩ ـ وثمة ناحية أخرى يحسن بنا أن نتنبه اليها لانها ذات تأثير كبير على الجماهير العربية وهي لغة المعلقين الرياضيين ، انهم لم يكتفوا باستعمال اللغة الدارجة على أبشع صورها أحيانا ، وانما يكثرون من استعمال الالفاظ الانجليزية بشكل يدعو الى الاستغراب الشديد ، فبدلا من المسابقة يقولون « ماتش » وبدلا من الهدف « جول » وبدلا من الجناح الايمن أو الجناح الايسر يقولون « وينج يمين وينج شمال » وبدلا من « التسلل » « أوف سايد » وما الى ذلك من ألفاظ باستطاعتنا أن نشيع الالفاظ العربية السليمة بدلها .

واجب جسيم . . لا صغائر !

وقد يحسب بعض الناس أن الاهتمام بهذه الجزئيات مضيعة للوقت ، وأن للمسئولين عن شئون الاذاعة والتلفاز والتوجيه والارشاد عامة مهامَّ أخرى أعظم شأنا من هذه الصغائر التي يحلها الزمن ، وليس ثمة حاجة الى تخطيط قد يؤدي آخر الامر الى نوع من القسر والضغط .

وعلى الرغم من عدم مشاطرتي هذا النفر هذا الرأي ، فلنفرض جدلا أن اصلاح هذه المسائل البسيطة ميسور ، فيكون استمرارها اذن أعظم عيب مصداقا لقول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيبا
كنقص القادرين على التمام

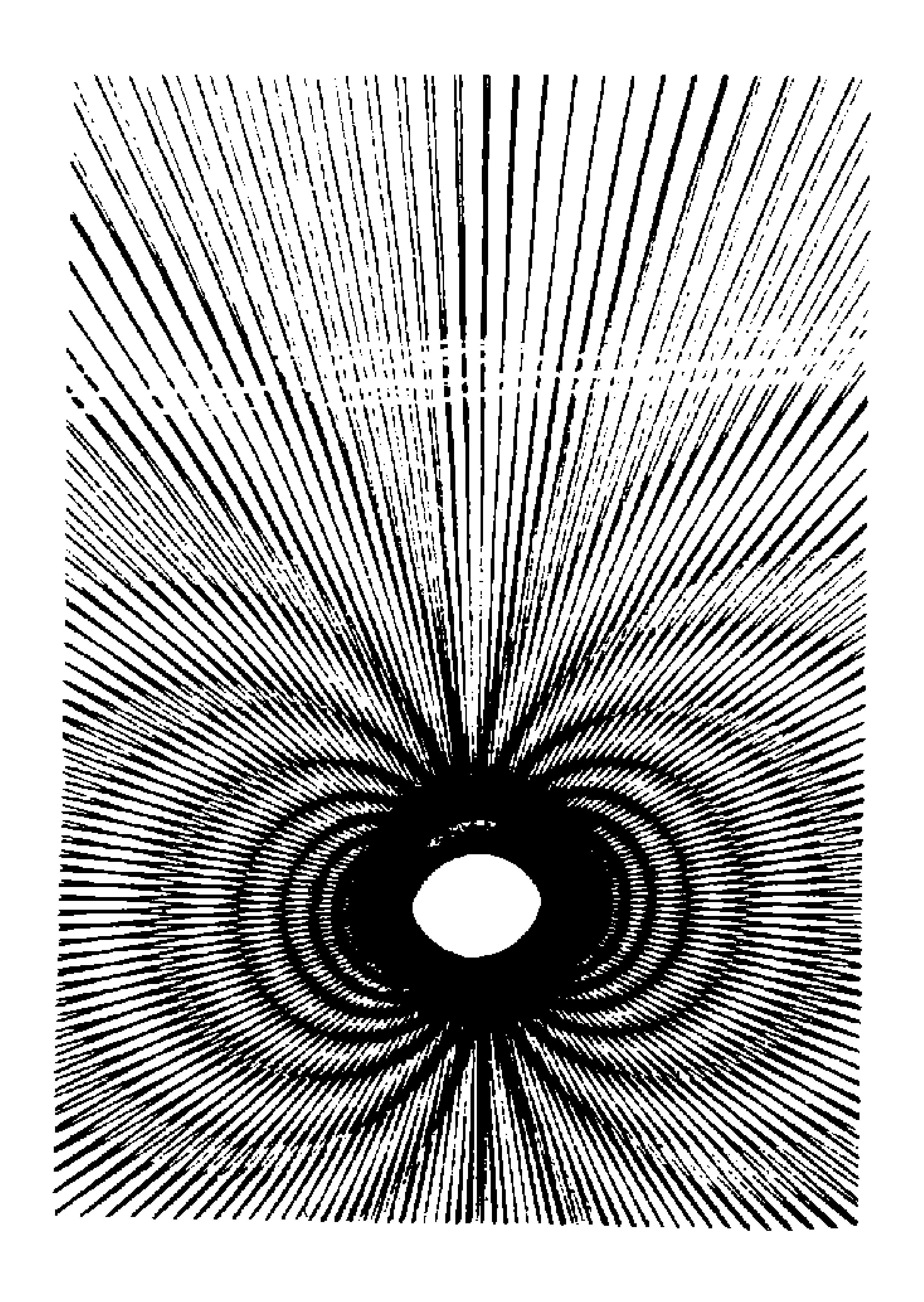
على أن الانتباه الى مثل هذه الامور حيوي جدا ، وأن الذي يستهين بها إمّا جاهل لاثرها العظيم ، وإما مخادع لا يريد لامتنا العربية أن تحقق وجودها المتكامل ، ان حرص أية أمة على لغتها والعمل على اشاعتها ، هو أول ما تفرضه قوميتها عليها .

على أن واجب النهوض بالفصحى جد جسيم ، وتبعة ذلك كاملة تقع على كثير من المؤسسات والهيئات والمجامع والمعاهد والفئات الواعية .

ورحم الله الاستاذ محمد شفيق غربال حيث كان يقول : « كلما أطال الانسان الفكر آمن بأن لغة العرب كانت أعظم ما خلقه العرب لماضيهم ولحاضرهم ولمستقبلهم » .

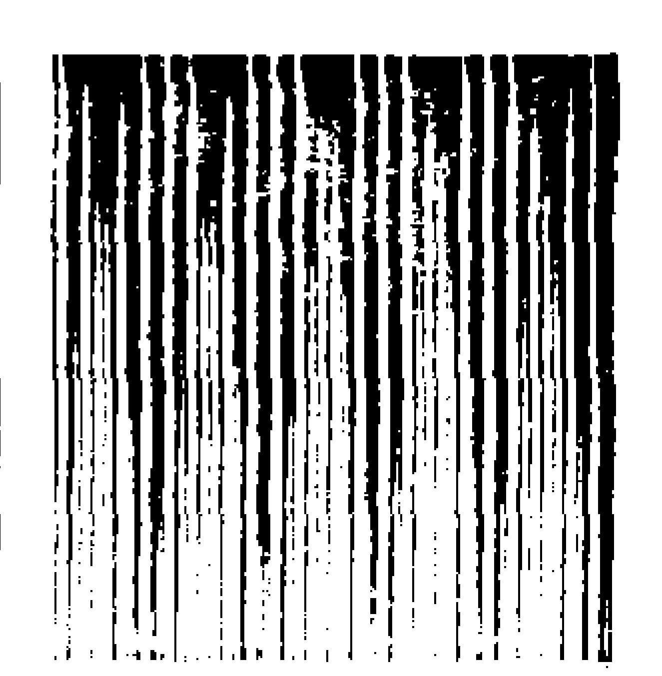
فلنحرص الحرص كله على هذه اللغة ، ولنكرر باعتزاز ما كان قد قال به « أرنست رينان » : « من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصَعُب حل سره ، انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء بدء ، فبدت فجأة على غاية الكمال سلسة أية سلاسة ، غنية أي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد الى يومنا هذا أدنى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ، ولا شيخوخة ، ظهرت أول أمرها تامة مستحكمة ، ولا أدري هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الارض ، قبل أن تدخل في أطوار وأدوار مختلفة . . ما عهدت قط فتوحا أعظم من الفتوح « العربية » ولا أشد سرعة منها ، فان العربية ولا

جدال قد عمت أجزاء كبرى من العـالم ، ولا ينازعهـا الشرف في كـونها لغة عامة ، أو لسان فكر ديني أو سياسي ، يتجاوز اختلاف العناصر ، الا لغتان : اللاتينية واليونانية ، وأين مجال هاتين اللغتين في السعة من الاقـطار التي عم انتشار العربية فيها ؟ ! »



دراسة التاريخ العربي

د. عبدالعزيز الدوري



العرب من الامم التي اعتنت بالتاريخ عناية خاصة ، فروته وتدارسته ، وجعلته جزءا من ثقافتها العامة ، وأكثرت من التأليف فيه كثرة تجلب الانتباه ، وهم أمة تستهدى بالتاريخ في حياتها العامة ، وفي كثير من مواقفها المهمة ، ويلعب تاريخها دورا حيويا في نظرتها للامور ، وفي كثير من علاقاتها بالامم الاخرى .

العربي العدد ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٠ م

وترجع جذور هذا الاهتمام بالتاريخ الى ظروف وعوامل عدة ، فان أنت تخطيت جانب المتعة والاعتزاز بالمآثر والامجاد ـ وهو جانب بشري طبيعي تجده عند العرب وتجده عند غيرهم من الشعوب ، وتجده لدى البدو ولدى الحضر ، ويصح أن يكون تاريخا ، وأن يكون مجموعة من القصص التاريخي ـ فانك تجد عوامل أخرى لهذا الاهتمام . . فقد رافق توثبهم الكبير بالاسلام تَنَبُّهٌ لاهمية التاريخ في حياة الامم الاخرى ومسيرتها وشعور بأهمية العبرة فيما مضى ، ورافقه اهتمام بسيرة الرسول ﷺ وصحبه وبالمآثر الجديدة التى اكتسبوها بالتوسع والفتح ، وجاءت مشكلة الخلافة فجعلت لأحداث صدر الاسلام أهمية خاصة في تفكيرهم ، بل استندت اتجاهاتهم السياسية الى حد كبير الى تفسير هذه الاحداث والى تحديد دلالتها ، فاهتموا بالتاريخ وتدارسوه ، وبعد كل هذا ترى أن العرب كانوا يحسون بأنهم أصحاب رسالة في التاريخ ، وأن هذه الرسالة تكسبهم منزلة خاصة في موكب البشرية ، وتتطلب منهم الاحتفاظ بسجل بأعمالهم وبسيرة الامة عامة .

وبمرور الزمن ازدادت أهمية التاريخ واتسع دوره في حياتهم ، كانوا يسمونه « الايام » و « الاخبار » و « السِّيَر » ، ثم صاروا يسمونه التاريخ ، واذا كانت لفظة « التاريخ » « تعني » « التوقيت » من قبل ، فانها صارت تعني سجل أحداث الماضي .

الشعوبيون وتشويه التاريخ :

هذا الاهتمام بالتاريخ والشعور بالرسالة التاريخية ، جعل الشعوبيين يدركون قدر التاريخ لدى العرب ، ويركزون قسطا كبيرا من اهتمامهم على تشويهه والدس عليه ومهاجمته ، وهنا قام المؤرخون بدور حيوي في الرد على الشعوبية ، ردا مباشرا من جهة ، وغير مباشر من جهة أخرى ، فراحوا يفسرون دور العرب في التاريخ ، وراحوا يتتبعون دسائس الشعوبية ، ونشطوا بصورة عامة وبروح جديدة في حقل التاريخ العربي ، ليوضحوا أن العرب أمة ذات تاريخ يُكوِّن سلسلة متصلة الحلقات قبل الاسلام وبعده ، وأن العرب حملوا الرسالة الحضارية لغيرهم في التاريخ .

وللتمثيل على ذلك نذكر أن البلاذري ألف (فتوح البلدان) وعبر فيه بوضوح عن دور العرب كأمة في نشر لواء الاسلام وفي خلق دار الاسلام وعن موقفهم من الشعوب الاولى التي دخلت الدين فيها بعد ، وكتب (أنساب

الاشراف) ليبين دور الرؤساء والزعماء في التاريخ العربي وأثرهم في تكوين الدولة العربية الكبرى ، وألف ابن قتيبة (المعارف) ليبين اتصال حلقات التاريخ العربي والثقافة العربية ، وليبين أهمية التاريخ لكل مثقف ، والأصمعي ألف في تاريخ العرب قبل الاسلام ليبين أنهم أناس لهم ماض حضاري وكيان محترم حتى قبل ظهور الاسلام .

ولعل التمهيد يبين لك أن التأليف التاريخي عند العرب وثيق الصلة بحياتهم وباتجاهاتهم العامة ، كما كان جزءا لايتجزأ من التوثب الثقافي العام ، وهذا يعني تعرض كتابة التاريخ لمختلف المؤثرات ، عامة وفردية .

ولنا أن نتساءل عن النظرة التي تخللت كتابة التاريخ عند العرب لنرى أكان يستند الى أساس جدي متين أم كان سبيلا لاغراض أخرى ، وانهم اكتفوا بالسرد دون تمحيص ، ومثل هذا القول قد يصدر عن اطلاع سريع أو عابر على بعض كتب التاريخ العربي دون محاولة جدية لفحصها ، فمع أن القصص الشعبي يختلط بروايات التاريخ بشكل ملحوظ ، فان طابع الجد يسود ما وصلنا من كتب تاريخ العرب .

وكانت للمؤرخين العرب وسائل خاصة بهم في تدقيق الاخبار في النقد ، فقيمة الخبر أو الرواية تعتمد على راويها ، من ناحية جِده ودقته وصدقه وصلته بالحوادث ، وقد نفرض أن هذه النظرة دفعت الى التأكد من الرواة دون نظر الى محتوى الروايات أو متنها ، ولكن دراسة الروايات الاولى تدل على أن الاهتمام اتجه مبدئيا الى نقد متن الروايات ومقارنتها ببعضها بعضا ، والاشارة الى الروايات التي تروى من قِبَل رواة متعددين متباعدين ، أما نقد سلاسل الرواة فيمثل مرحلة تالية نسبيا لنقد المتن ، وكان لاساليب المحدثين دورها في النقد التاريخي ، ذلك لان مدرسة المدينة في التاريخ بدأت وثيقة الصلة بالحديث كما أنها خطت بسرعة في الاتجاه النقدي ، وقد ساعدها وضعها الجغرافي في الجزيرة وانتقال الصراع على السلطة خارجها الى شمال الجزيرة على اتخاذ موقف متزن في النقد .

ووجد المؤرخون في ضبط تواريخ الحوادث وسيلة أخرى للنقد ولتدقيق الروايات ، كما أن المؤرخين أشاروا الى الروايات الغريبة أو الضعيفة ولم يترددوا في نقدها بصرف النظر عن مصدرها ، ورأوا في ايراد الروايات المختلفة سبيلا لتقديم صورة متزنة عن الاحداث ، ووضعوا التراجم للمؤرخين والرواة ليعطوا فكرة عن نشأتهم وميولهم وظروفهم العامة ، وهذا يساعد على تقدير

قيمة رواياتهم ، ولكن المؤرخين العرب في الغالب لم يحاولوا تحليل الحوادث أو الاستنتاج من المادة الاولية خشية منهم أن يكون ذلك سبيلا للظن أو للانحراف في الرأي ، واكتفوا بايراد الاخبار بطريقة تمكن القاريء أن يحتكم لنفسه ، كما أن آراءهم تتجلى في الانتقاء أو في قبول بعض الروايات واهمال البعض الاخر ، ودراسة المؤرخين الاولين كالطبري والبلاذري واليعقوبي وما ضمنوه كتبهم من مؤلفات الجيل الذي سبقهم من المؤرخين - الذين لم تصلنا كتبهم - تدل على اتزان وتدقيق وعلى نظرة أكثر عمقا من الصورة الاعتيادية .

ولعلنا نظن بعد هذا العرض أننا ورثنا النظرات والاساليب التاريخية الماضية ، وأن كتابة التاريخ عندنا في مطلع النهضة العربية كانت استمرارا لما سبق ، ولكن الواقع يدل على تدهور واضح في مفهوم التاريخ وفي طريقة دراسته وكتابته ، وذلك نتيجة فترات الركود الفكري التي مر بها العرب ، فقد انحدر التاريخ الى مستوى يقرب من مستوى القصص ، وضعفت فيه وجهة النقد سواء أكان ذلك في ضبط الرواة أم في معارضة الروايات ، وفقدت دراسة التاريخ معناها وأصبح التاريخ هيكلا أجوف .

وحين بدأ الوعي العربي الحديث ، التفت العرب الى تاريخهم يتدارسونه ويكتبون فيه ، ونظرة سريعة الى ما كتبوه في مائة السنة الاخيرة تدل على انتاج واسع يثير الكثير من التفاؤل وبعض الدهشة ، وقد ازداد التأليف في التاريخ سعة وغنى باطراد النهضة العربية ، وهذا أمر طبيعي لان نهضة الامة وتطورها الثقافي على صلة بوعيها التاريخي .

ولكننا من جهة أخرى نتساءل عن قيمة الكثير من هذه المؤلفات ، وعن المفاهيم العامة لاساليب البحث التاريخي ولمعنى التاريخ ، ولابد لنا أن نبين أن مشكلة أساليب البحث تتصل بالمختصين وحدهم ، في حين أن موضوع الوعي التاريخي يهم كافة أفراد الامة دون تمييز .

ليس كل من كتب مؤرخا !

وأول ما نلاحظه هو أننا لانزال ننظر الى كتابة التاريخ على أنه أمر مشاع ، أو أرض مشتركة للجميع ، فلكل مثقف ولكل من يرى نفسه كذلك أن يكتب في التاريخ ، والكتابة التاريخية لاتتطلب إعدادا خاصا ولاتستوجب اختصاصا معينا ، ولذا فأنت تجد نسبة قليلة بين المؤلفات التاريخية صادرة عن أفراد ليست

بينهم وبين الاختصاص أدنى صلة ، وهذه ولاشك حالة تستوجب الكثير من التساؤل وتؤدي الى اعطاء صورة قلقة عن التاريخ .

ويتصل بهذه النظرة الاتجاه الى اعتبار التاريخ نوعا من القصة ، أو شيئا قريبا من ذلك ، وأنه لايتطلب أكثر من سرد الأخبار والاكثار من ذكر الأسماء والتواريخ دون الاشارة الى مصدر ، ودون تفكير باستيفاء المواد الاولية المتيسرة والمتعلقة بالحوادث ، ودون نقد أو تحليل ، ودون أية فكرة تاريخية ، واذا تذكرت هذا ولاحظت أن تاريخنا يلعب دورا كبيرا في حياتنا ، وأن بعض أحداثه لا تزال حية في تفكيرنا وتصرفاتنا ، أدركت المجال الواسع لتعكير التاريخ بين من ينظر نظرة عاطفية طيبة لا تستند الى أساس ، وبين من يريد الدس والتشويه وطمس معالم هذا التاريخ .

ويبدو لي أن فهم الامة لذاتها ، ومجابهتها المعضلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذي تنشده لنفسها يعتمد إلى حد كبير على فهمها لتاريخها فهما صحيحا ، ويستند الى دراستها لهذا التاريخ دراسة علمية صحيحة ، ولا يمكن لامة أن تجد في تاريخها سبيلا للانطلاق وعونا على النهضة الصحيحة دون فهم واع سليم لتاريخها .

ان هذه النظرة للتاريخ متصلة بأساليب الكتابة فيه ، وبالاراء التاريخية السائدة ، أما أساليب كتابة التاريخ في العربية فتتراوح بين أسلوب السرد شبه القصصي الذي ورثناه عن فترة الركود الفكري ، وهو يمثل انتكاسا في الاساليب التاريخية التي سار عليها المؤرخون القدامى ، وبين أسلوب البعض ـ وهم قلة ـ في محاولة تطبيق أسلوب البحث التاريخي الحديث المعروف في الغرب ، والفجوة بين الاسلوبين بعيدة ، وبينهما تسلسل في التدرج يظهر فى الكثير من المؤلفات .

ولا يسعنا الا أن نؤكد أولا أن كتابة التاريخ تتطلب إعدادا وتتطلب اختصاصا وتفرغا ، ولا يجوز أن تكون أرضا مشاعة لكل من أراد الكتابة ، ومن الصعب جدا أن يكتب التاريخ بمفهوم علمي صحيح دون توافر هذا الاختصاص .

وإن بدأنا بهذه الفرضية ، انتقلنا الى أسلوب السرد الذي لا يستند الى استقصاء ولا يصحبه أي تحليل ونقد ولا يمكن أن ينتج دراسة جدية ، بل إنه على العكس يحيل التاريخ الى ركام ينفر منه من يحب التاريخ ومن لا يميل اليه على السواء ، وأهم من ذلك أنه لا يؤدي بنا الى التاريخ الحي الذي يساعد على فهم سيرة الامة .

ويتصل بهذا نظرتنا الى التاريخ . فتاريخنا ، كغيره ، لا يمكن أن يدرس على أنه تاريخ أفراد لاهين أو تاريخ أسر حاكمة ، لان مثل هذا الاتجاه يطمس اتجاهاته الكبرى وجوهره ويشوه وحدته واتصاله ، بل انه تاريخ أمة يزخر بمختلف نواحي الحيوية ، واذا كان لبعض الأفراد مواقف خاصة فلأنهم فهموا الأمة وأدركوا الاتجاهات والتيارات السائدة فيها ، ووجدوا في ظروفها ما مكنهم من نشاطهم ، وعلى كل حال فان الامم هي التي تصنع التاريخ ، وهي التي تكسبه وحدته وطابعه الذي يميزه ، وما التبدلات السياسية التي تحدث فيه من زوال حكم وقيام آخر ، وانتهاء أسرة وحلول أخرى ، الا مظهر لتبدلات عميقة في المجتمع توجب حصول هذا التبدل .

ولهذا فان فهم التاريخ يوجب على الباحث أن يدرسه باعتباره تاريخ أمة متصل الحلقات .

الطريقة السليمة لدراسة التاريخ :

وهذا يتركنا مع الاسلوب الغربي في دراسة التاريخ ، وهنا نستطيع أن نفصل في البدء بين وجهتين متباينتين : الاولى تبدأ بدراسة التاريخ بنظرية معينة ، أو بفرضيات معينة ، وتحاول أن تفسر التاريخ بضوئها ، وأن تجد في المواد الاولية سندا لها ، وأمثلة هذا الاتجاه كثيرة ، فالبعض يأخذ بنظرية تفاضل الاجناس وينادي بتفوق جنس معين ويدرس التاريخ بضوئها ، والبعض الثاني يرى وسائل الانتاج وما يتصل بها من علاقات اقتصادية اجتماعية ، هي الاساس في التطورات الاخرى في المجتمع ، وأن التاريخ يسير وفق الديالكتيكية المادية ، وليس لنا إن أردنا فهمه الا أن نفسره على هذا الاساس ، والبعض الثالث يرى أن الفكرة هي أساس التطور ، وأن التاريخ يدرس على أساس ظهور الافكار ونقيضها والتجاذب والتصادم بين الافكار ، والبعض الرابع يدرس التاريخ بنظرة دينية ، إلى غير ذلك من نظريات .

وهذه الوجهة في دراسة التاريخ تعني أن يتخذ التاريخ وسيلة لتأييد نظريات سياسية أو اجتماعية ، وبتعبير أبسط أن تكون دراسة التاريخ وسيلة لترويج بعض النظريات أو لدعم بعض النظم لا أن تكون سبيلا لفهم تطور المجتمعات البشرية .

هذه وجهة في دراسة التاريخ . . أما الوجهة الاخرى فهي أن تبدأ دراستك دون فرضية شاملة ودون نظرية ، وأن تدرس ما لديك من مواد تاريخية ثم تكون آراءك وتضع نتائجك بعد الدراسة ، وهذه هي الطريقة الحديثة في البحث التاريخي السليم .

اننا نرى في هذه الوجهة سبيلا لفهم التاريخ وسير حوادثه ، وهي تتطلب أولا جمع المادة التاريخية التي تشمل المصادر التاريخية المكتوبة والبقايا الاثرية والوثائق والروايات ، وكل ما له صلة بموضوع البحث من مؤلفات أدبية ، وتتطلب ثانيا فحص هذه المواد الاولية ونقدها ، وتتطلب ثالثا التحليل والاستنتاج اضافة الى الربط .

ويحتاج الباحث الى أن يفهم لغة مصادره ، وأن يعرف المصطلحات التاريخية وأن يستفيد من بعض الموضوعات لدراسة التاريخ كعلم الاثار وعلم الخطوط ، ومن موضوعات أخرى تتصل بطبيعة الدراسة كعلم الاقتصاد مثلا في دراسة التاريخ الاقتصادي .

ونحن نقدر أن التوثب العربي الحديث يتطلب فهم الذات العربية ، وأن تجديد الكيان العربي وبناء مجتمع عربي سريع الحركة والتطور يستند إلى حدٍّ كبير على فهمه لذاته، وعلى ادراكه لجذوره التاريخية، ولن يتحقق ذلك الا بالدراسة الجدية وبالبحث العلمي النزيه ، فنحن لا نريد أن نبني تفكيرنا وكياننا على وجهة عاطفية رومانتكية ، ولنا من الثقة بذاتنا وموقفنا التاريخي ما يجعلنا نستند الى أسس من البحث الرصين .

ولكن هذا لا يعني ، أن أسلوب البحث التاريخي الغربي يمكن اقتباسه وتطبيقه حرفيا في دراسة تاريخنا ، لان طبيعة المواد الأولية مختلفة ، فالكتابة التاريخية عند العرب ، أو مصادرنا التاريخية ، اتخذت أساليب ونظرات تختلف عما تنطوي عليه مصادر التاريخ الاوربي ، وليس هذا محل استقصاء ذلك ، بل يكفي أن نذكر بعض الامثلة ، إن « مصطلح التاريخ » أو طريقة البحث التاريخي ، تعتمد على طبيعة المصادر التاريخية وعلى أساليب النقد والتمحيص ، ولذا فاننا حين نبحث التاريخ العربي نحتاج الى أن نفهم طبيعة مصادرنا في التاريخ العربي أولا ، فنلاحظ ، مثلا ، أننا لا نزال بحاجة الى ضبط النصوص التاريخية ، وهذا أمر فرغ منه الغربيون ، ثم إننا بحاجة الى أن نحدد مصادرنا لكتابة التاريخ ، وهل هي كتب الطبقات والسير والوفَيات وكتب التاريخ فقط ، أو أن مجموعات أخرى مهمة تدخل ضمن مصادرنا ، مثل كتب

الخراج ، وكتب الجغرافيين العرب ، وكثير من الكتب التي تعتبر أدبية ككتب الجاحظ والتنوخي والثعالبي ، وبعض كتب الفقه والفتاوي .

وحين نتأكد من ذلك ، نرجع لنميز بين نظرة مصادرنا التاريخية ونظرة المصادر الغربية . . ففي حين يضع الغربيون التأكيد على ما هو مكتوب ، ويكررون الحديث عن « الوثائق » ، تجد مصادرنا تؤكد على راوي الخبر وناقله ، ولا ترى كتابة الخبر في البدء الا سبيلا لاعانة الذاكرة ، فالتأكيد ينصب على المؤرخ لاعلى الكتاب ، ومعنى هذا أن المصطلح التاريخي العربي لن يمكننا من مجابهة كثير من مشاكلنا ، ثم أن مؤرخينا يختلفون في أساليبهم ونظراتهم ، فهم بين راوية واخباري ، ومؤرخ ، ونساب ، ولغوي ، ولكل صنف أسلوبه ونظرته التاريخية ، ويلزمنا أن نفهم كلا على حدة ، ومتى انتهينا من هذه المرحلة ، نعود لنسأل : هل روى هذا المؤرخ أخباره شِفَاها ، أو استعان بالكتابة ؟ وهي أخذ من مصادر مكتوبة

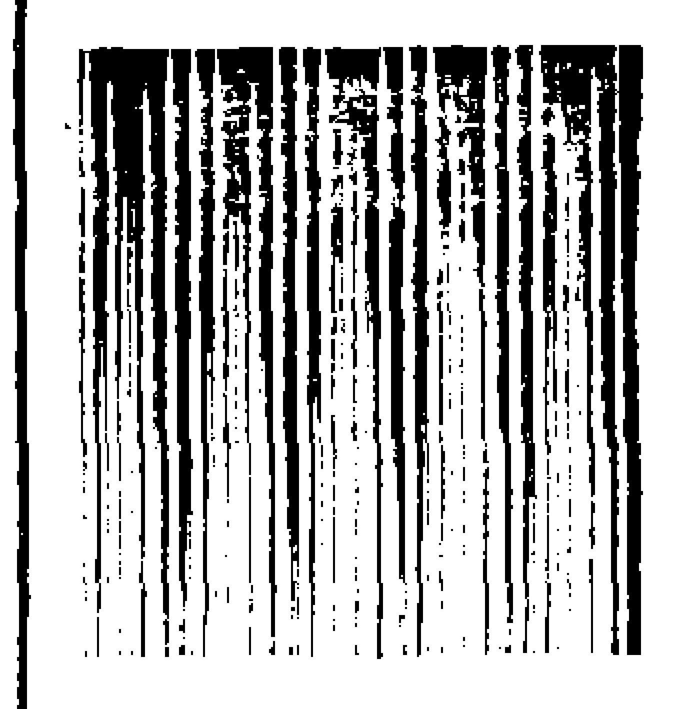
وفي دراسة التاريخ العربي نحتاج الى معرفة مفهوم العرب للتاريخ ، والى ما لديهم من نظرات تاريخية ، والى الدوافع التي دفعتهم للكتابة التاريخية والى الصلة بين تطور « التاريخ » وبين التيارات العامة ، ثقافية وغيرها ، كل هذا يعني أننا بحاجة الى أن ندرس تاريخ « التاريخ » عند العرب ، وأن نكتب في ذلك لتنوير دارسي التاريخ وتيسير مهمتهم ، ولن يغنينا عن ذلك دراسة الكتب الغربية في تاريخ علم التاريخ ، لانها تقتصر على علم التاريخ الغربي .

ثم إننا نحتاج الى نوع خاص من العلوم المساعدة عند دراسة التاريخ العربي ، فمثلا يهمنا أن ندرس علم الحديث و « مصطلح الحديث » ، وأن نتفهم أهمية المعاجم اللغوية في التعبير عن المعاني التاريخية للكلمات وتطورها ، وأن نفحص الصلة بين التاريخ والقصص .

من كل هذا يتضح أننا نريد أسلوبا في البحث التاريخي يناسب دراسة التاريخ العربي ، نستفيد في تكوينه من « مصطلح التاريخ » الغربي ، ومِن تفهُّم طبيعة مصادرنا التاريخية ، لنتمكن من دراسة تاريخنا دراسة علمية ، فلا نقتبس المصطلح الغربي كما هو ، ولاندع الطريقة الراكدة التي خلفتها الفترة المظلمة تقف في سبيلنا ، بل نكوِّن مصطلحا حديثا يناسب التاريخ العربي ، ومثل هذا المصطلح التاريخي سيساعد دون شك على تكوين وعي تاريخي يستند الى فهم سليم لتاريخنا ، ويكون سبيل انطلاق وعامل دفع إلى الامام في نهضتنا القومية الشاملة . .

القومية العربية كما ينبغي أن نفهمها

د. محمد احمد خلف الله



ما البلدان التى يحتويها مضمون القومية العربية ؟ هل هى التى يدين أهلها بالاسلام ويتخذون منه دستورا وقانونا لهم ؟ أو هى البلدان التى يتحدث أهلها العربية ويتخذون منها لغة أصلية لهم : لغة حديث ، ولغة أدب ، ولغة فكر وثقافة ؟

وما الحدود التى تمتد اليها هذه البلدان ؟ هل هى الحدود التى يمتد اليها الاسلام وتنتهى عندها حدود الدول الاسلامية ؟ . . أو هى الحدود التى تمتد اليها اللغة العربية وتنتهى عندها حدود الدول العربية ؟

وما الدرجة التى تقاس بها قومية القومى فى هذه البلدان ؟ هل هى أن يكون مسلما مخلصا فى اسلامه سواء أكان عربيا أم غير عربي ، أو هى أن يكون عربيا أو مستعربا ، مؤمنا بعروبته ومعتزا بها سواء أكان مسلما أم غير مسلم ؟

العربى العدد ١ ديسمبر - كانون الاول ١٩٥٨ .

هذه أسئلة لابد من التفكير فيها والاجابة عنها والا ظللنا نخلط بين القومية العربية والوحدة الاسلامية ، والا ظللنا نقيم أهدافنا القومية على أسس غير مسلم بها من الجميع ، وتظل مشكلة الأقليات الدينية فى الوطن العربى غير قابلة للحل .

والاجابة عن هذه الاسئلة يجب أن تكون مستمدة من واقع الامة العربية ومن أحداثها القومية ، والا ظللنا نجرى وراء فروض نظرية لا تقدم حلولا ولا تصف واقعا ، وفى ذلك من الاضرار بأهدافنا القومية ما فيه ، يجب ألا نخلط بين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، يجب أن نميز بين الاهداف التى تنبعث من الدين والأهداف التى تنبعث من القومية ، يجب أن نعرف فى يقين ، هل نهدف فى حركاتنا الثورية الى الدفاع عن العروبة من حيث هى قومية ، أو الى الدفاع عن الاسلام من حيث هو دين ؟

حدود اللغة

والاجابة عن هذه الاسئلة تكون سهلة يسيرة لو وقفنا من ذلك عند هذا المحتوى الذى يعلنه كل صباح ومساء القوميون من أبناء الامة العربية ، انهم يقولون لنا فى كل وقت ، وفى غير لبس أو غموض ، ان هذه البلدان تمتد من المحيط الاطلسى الى الخليج العربى ، ومعنى ذلك انها تحد بحدود البلدان التى تتخذ من العربية لغة الفكر والثقافة ، ولا تحد بحدود البلدان التى تتخذ من الاسلام دينا ، والا لامتدت حتى تشمل دول حلف بغداد وغيرها من البلدان الاسلامية مثل الأفغان والهند وأندونيسيا وما أشبه .

ومن السهل أن نقول هذا ، وأن ننتهى عند هذه النتيجة ولكنى لا أريد أن أكتفى من هذه الظاهرة القومية بخواتيمها ، انى أريد أن أمضى معها منذ ذلك اليوم الذى اتخذ فيه العرب النظرية أساسا لنضالهم السياسى وكفاحهم الوطنى ، ان هذا التاريخ هو الذى سيكشف لنا عن المقوم الاول والمقوم الاصيل فى بناء هذه القومية .

ظاهرتان اساسيتان

ونبدأ مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فنجد القومية العربية حركة سرية تؤلف من أجلها الخلايا فى عاصمة الدولة العثمانية . . . ونجدها حركة علنية فى جمعيات أدبية تتكون وتتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها . . . ونجدها حركة سياسية واضحة المعالم ، لها أهداف قومية فى المؤتمر العربى الاول الذى عقد فى باريس عام ١٩١٣م ، وفى كل هذا نلحظ ظاهرتين لا سبيل الى انكارهما :

الظاهرة الاولى : أن هذه الحركة لم تتخذ من الاسلام خاصة ومن الدين عامة أساسا لها وانما مضت على أساس عربى خالص ، فلقد كانت حركة ضد التتريك ، ثم أصبحت حركة انفصالية يريد بها العرب التخلص من نفوذ الأتراك وسيطرتهم ، وفى كل من هذين الهدفين اشترك النصارى مع المسلمين ، اشتركوا على أنهم عرب يؤمنون بعروبتهم ويعتزون بها .

الظاهرة الأخرى: أن مضمون القومية العربية فى ذلك الوقت لم يشمل القسم الافريقى من الوطن العربى وانما شمل القسم الآسيوى فقط ، كان هذا المضمون يحتوى بلاد الجزيرة ، وبلاد الشام والعراق ، أما مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى فلم تكن ضمن هذا المحتوى ، والسر فى ذلك واضح ولكنه دقيق ، انه الذى يكشف لنا عن أسباب هذا الصراع الذى لايزال قائما بين الفكرتين الاسلامية والعربية ، ولماذا ظل مفهوم القومية العربية فى أذهان الكثيرين من أبناء هذا القسم العربى الافريقى مبهما غامضا .

لقد كان القسم الافريقى من العالم العربى يخضع قبل الحرب العالمية الاولى لنفوذ الاستعمار الغربى ، الاستعمار الانجليزى ، والاستعمار الايطالى ، والاستعمار الفرنسى ، وليس يخفى أن هؤلاء ليسوا من المسلمين ، بل انهم يكرهون الاسلام . ومن هنا قامت الحركات الوطنية فى هذا القسم على أساس دينى ، واتُّخذ الدين فى هذا القسم أساسا لكراهية المستعمر والعمل على طرده واخراجه .

أما القسم الآسيوى فكان يخضع للنفوذ التركى ، وليس يخفى أن الاتراك مسلمون ، وليس من المعقول أن يؤسس النضال فى هذا القسم على أساس دينى اسلامى ، اذ الكل مسلمون ، ومن هنا كانت العروبة هى الاساس فى النضال ، واشترك النصارى مع المسلمين .

ثم ان دول القسم الافريقى اتخذت من صلتها بخليفة المسلمين أساسا لهذا النضال . ان الخليفة هو صاحب الحق الاول فى هذه الدول ، انها تتبعه ، وان تبعيتها هذه تبعية دينية ، وان واجب الخليفة أن يحميها وأن يساعدها فى طرد المستعمر ، ومن هنا كان استمساكها بالعلاقة الدينية التى تربطها بدار الخلافة ، أما القسم الآسيوى فلم يكن بحاجة الى الاستمساك بهذه العلاقة لأنه انما يثور على الخليفة نفسه ، ويسعى للتخلص من نفوذه .

الوطنية والقومية

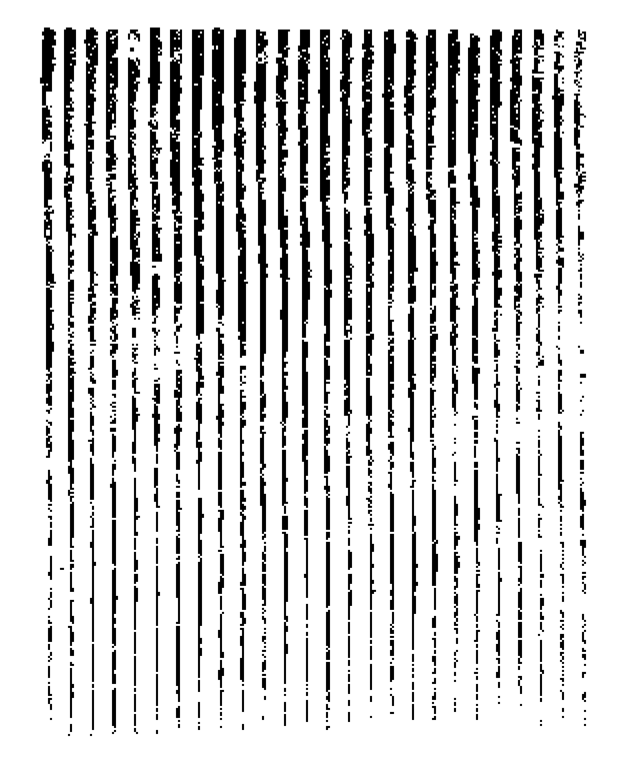
ثم هناك أمر آخر جعل القسم الافريقى يؤمن بالوطنية أكثر من ايمانه بالقومية ، هو أن دول هذا القسم كانت لها شخصيات مستقلة ، وكان الولاة فيها أشبه بالملوك فى الدول المستقلة ، وهكذا كان الحال فى مصر ، وكان الحال فى تونس ، وكان الحال فى المغرب الأقصى ، ومن هنا كان الكفاح فى سبيل الوطن وفى سبيل « قومية محلية » لا فى سبيل العروبة ، ومما ساعد على هذا الوضع أن كل دولة كانت تناضل دولة استعمارية غير التى تناضلها الاخرى ، فمصر تكافح الانجليز ، وتونس تكافح الفرنسيين ، ولم تكن هناك وحدة فى الأهداف حتى تكون وحدة فى النضال .

أما فى القسم الآسيوى فلم يكن الحال على هذا الاساس ، لم تكن هناك دول لها شخصياتها المستقلة ، ولم يكن الولاة من الاستقرار والثبات بحيث يشبهون ولاة القسم الافريقى الذى كانت الولاية فيه مستقرة فى أسر تتوارث الولاية ، وكانت وحدة الهدف قائمة على أنهم جميعا يناضلون الخليفة ، كل هذا جعل الأساس قوميا وجعله عربيا فى القسم الاسيوى .

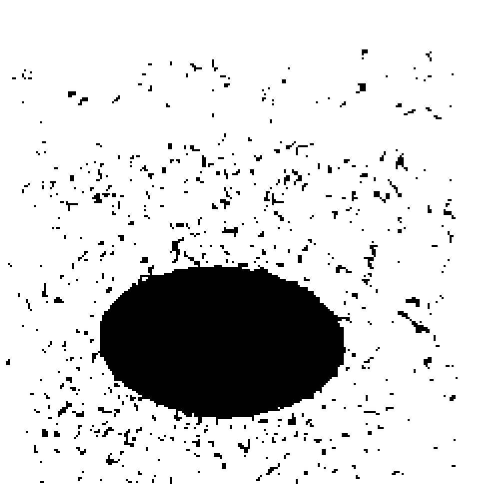
كان هذا فى البدء ، أما اليوم فقد اتسع مضمون القومية العربية حتى شمل القسمين وان تكن الفكرة مختلطة بالاسلامية حتى اليوم ، وأعتقد أن الفكرة العربية هى التى ستسود وتسيطر ، ودليلى آخذه من تاريخنا القريب وتاريخنا البعيد ، ان الساسة اليوم ينادون بالقومية العربية ، وتحقيق الوحدة العربية أقرب منالا من تحقيق الوحدة الاسلامية ، ان مصلحتنا اليوم فى تحقيق هذا الهدف القريب ، ثم ان الفكرة العربية أكثر انتشارا وأوسع نفوذا من الفكرة الاسلامية ، انها تشمل سكان الوطن العربى جميعا ، أما الاسلام فلا يشمل هؤلاء السكان ، لقد تعرب سكان هذه البلدان أجمعين ولم يُسْلموا أجمعين ، انه لا يزال منهم النصارى ولا يزال منهم اليهود .

أعتقد أن المسائل قد وضحت الآن ، وأعتقد أن العنصر الأول فى بناء القومية العربية هواللغة ، انها التى تحدد البلدان التى تدخل ضمن نطاق هذه القومية وانها التى نقيس بها قومية القومى ، فحيث تكون اللغة العربية لغة الفكر والثقافة تكون القومية العربية ، ومن هنا آمن العرب فى المهجر بعروبتهم ، وليس يخفى أن أكثريتهم من النصارى .

يجب ألا نخلط بين الفكرتين ، ويجب أن نميز بين الفكرتين ، ويجب أن نعلم جميعا أن هذا لصالح القومية العربية .







الفصل الثالث

آراء ومناقشات



دفاع عن العروبة

د. عبدالرحمن البزاز



ترى هل العروبة متهمة لتحتاج إلى من يدافع عنها ؟
أجل انها متهمة ، وهي متهمة ، ولكنها كأكثر « المتهمين » متهمة بلا دليل قاطع ، أو برهان تركن اليه الذمم النقية .
ولكنها على كل حال متهمة ، وهي لذلك بحاجة الى الدفاع ، وهي ليست متهمة من أعدائها التقليديين من القدامى والمحدثين ، بل انها ـ وهذا هو المؤسف حقا ـ متهمة من بعض أبنائها ومناصريها . .

العربي العدد الرابع مارس ـ آذار ١٩٥٩

يقال « إن الاقطار العربية كومة من حجارة » ، وما أشبه هذا القول بكلمة كان يقولها بعض ساسة مصر القدامى من المتعصبين لاقليميتهم الضيقة ، وأعني بها « نظرية جمع الاصفار » ، وذلك قبل أن يضيء مصر نور القومية العربية الساطع منذ ٢٣ يوليو « تموز » سنة ١٩٥٢ .

انه ليس بين الاقطار العربية على اختلاف أنواعها ، وأنظمة حكمها ، وعدد سكانها ، وتباين مواردها ، واختلاف أهميتها الاقتصادية والجغرافية ما هو كومة حجارة أو صفر لاقيمة له ، انها قوة بشرية واقتصادية واجتماعية وسياسية لا سبيل لظهورها على أكمل وجه الا حين تتفاعل وتتعاطف وتتكامل مع بقية أجزاء الوطن العربي الكبير الواحد ، انها لن تقدر على الكشف عن ذات نفسها ، وتظهر ملكاتها كاملة غير منقوصة ، حين تبقى أقطارا مغمورة مشتتة متباعدة ، يعبث الاجنبي بقسم منها ، ويحاول الاستعمار الابقاء على نفوذه السافر أو المستتر في قسم ثانٍ ، وتعمل قوى الرجعية أو الانتهازية على تبديد ملكاتها وتحوير أهدافها في أجزاء أخرى . .

عقيدة وحركة

ان القومية العربية عقيدة وحركة .

هي عقيدة سياسية اجتماعية اقتصادية تقوم على الايمان بأن العرب ، حيثما يكونون ، أمة واحدة ، حقها المقدس أن تعيش حرة في جميع أجزاء وطنها الممتد في قارتين عظيمتين ، وعلى الايمان بما أنجزت هذه الامة العربية في الماضي والايمان بقدرتها على الابداع في المستقبل ، مع الحفاظ على تراثها ، وخصائصها الاصيلة .

وهي حركة دائبة تهدف الى الكفاح ضد الاستعمار على اختلاف أنواعه ، وتجميع أجزاء هذا الوطن كلها ، واقامة كيان سياسي عام مشترك تتحقق في ظله العدالة الاجتماعية لافراد الامة جمعاء ، وهي على ايمانها بالاشتراكية لا ترى نفسها ملزمة بالتمسك الشديد بمذهب من مذاهبها على وجه التخصيص ، بل تصطنع كل ما تراه كفيلا بتحقيق غايتها في رفع مستوى أفرادها ، وإشاعة الرفاهية والطمأنينة بينهم ، وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ، وتحقيق الديموقراطية الرشيدة تحقيقا كاملا لهم .

والقومية مفهوم حديث ، انها فكرة سياسية اجتماعية ظهرت بشكلها العلمى الدقيق في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، وقد تبلورت على أوضح صورة في الثورة الفرنسية ، بأفكارها ومثلها ، وتشريعاتها وشعاراتها وصيحات التنادي بها ، ومن فرنسا انتقلت الى أقطار أوربية عديدة بطريق التأثير الفكري أولا ، وبسبب الاحتكاك العسكري ثانيا ، وقد كانت حروب نابليون من الدوافع القوية في اثارة الروح القومية في أكثر من قطر واحد .

وقد أخذت الفكرة القومية طابعا خاصا في ألمانيا ، وتأكدت فيها المعانى العنصرية ، على حين كانت القومية الايطالية أقرب الى الطابع الثقافى والحضاري ، وأخذت القومية طابعا آخر في شعوب البلقان ، غذتها الكنيسة الارثوذكسية أحسن غذاء .

وعلى ذلك فالمزج بين « القومية » بهذا المعنى الحديث وبين القوم أو الاقوام من حيث هم مجاميع عنصرية غير صواب ، وبعبارة أخرى فان الاقوام المختلفة سيطرت على بلاد شتى ، وأقامت دولا عديدة ، ولكن ذلك لا يعنى وجود الفكرة القومية عند الفينيقيين أو الاغريق أو الرومان أو غيرهم من الاقوام القديمة مثلا .

وحتى العرب أمتنا لم يكونوا قوميين بالمعنى الذى نعرفه اليوم من مصطلح « القومية » ، وهذا لا يعنى أنهم لم يكونوا يحسون بقوميتهم ، أي بعروبتهم ، أو أنهم لا يتعصبون لها أحيانا ، ولكن القومية ، من حيث هي « عقيدة وحركة » على الوجه الذي أشرت اليه ، شيء ، والشعور القومي ، أو التعصب العنصرى أو القبلى شيء آخر .

الفكرة القومية

ان الفكرة القومية لا تكاد تمتد بالنسبة لامتنا العربية لأكثر من نصف قرن الا قليلا ، انها قد انتقلت الينا مع غيرها من الفكر عن الغرب ، بل ان صياغتها العربية « القومية » هي ترجمة لمصطلح أجنبي **NATIONALISM** فيما يبدو .

ويحسن بنا أن نتنبه الى ما في هذا اللفظ من اضافة "ISM" الى لفظ قوم "NATION" إذ فيه معنى العقائدية ، والفعالية في آن واحد ، فالقومية كالشيوعية ، وكالفوضوية ، وككل المذاهب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المنتهية بهذه الحروف في اللغات الاجنبية "ISM" ، فيها معنى التمسك الايجابي بعقيدة ، مع الجد في الدعوة اليها .

ان معرفة هذه الحقيقة ضرورية لادراك ما في القومية من فعالية وتجديد ، فليست القومية شيئا جامدا ، وليست هي مجرد الانتساب السلبي الى قوم ، بل ولا مجرد الاعتزاز بأمجادهم ، اذ لا بد من صفات ايجابية فعالة لصيرورة الفرد قوميا ، وعلى ذلك فليس كل عربي قوميا لمجرد انتسابه العنصري الى الامة العربية ـ هذا على فرض امكان اثبات مثل هذا الانتساب ـ ولا يصبح العربي قوميا ، وبالنتيجة مؤمنا بعروبته الا حينما تصبح القومية العربية عقيدته ومذهبه في الحياة ، يتقيد بما تفرضه عليه عروبته ـ مهما كانت الاصول التي تحدر عنها ـ بالمعنى الدقيق الصحيح .

ان مصطلح « عروبة » بالمعنى الذى نستعمله اليوم ، وبالمعنى الذى تفهمه الجماهير العربية الواعية مصطلح حديث أيضا ، فليس في قواميس اللغة العربية لهذا اللفظ معنى على غرار ما نفهمه نحن اليوم ، لقد ورد لفظ « عروبة » أو « يوم العروبة » ويراد به الجمعة ، أما هذه الصيغة التى نستعملها لتقوم بايجاز مقام القومية العربية فلفظ مستحدث ، وأغلب الظن أنه ترجمة لمصطلح "ARABISM" أو "PANARABISM" وفي هذه الصيغة من « الديناميكية » ما لا نحسه من لفظ عربي أو عروبي أو أى صفة أو نسبة أخرى مشتقة من هذا اللفظ .

العروبة والحياد

والقومية العربية ، ومختصرها « العروبة » هى سبيلنا الفعال لتحقيق الحياد الذى تؤمن به الأمة العربية كلها ، وقد تردد على ألسنة كل المخلصين من قادتها ، أن الحياد يفترض وجود طرفين في هذا العالم متخاصمين ، أو متحاربين حربا ساخنة أو حربا باردة ، والحياد يوجب على المحايد أن يقف وسطا بين الطرفين المتعارضين غير منحاز الى فريق منهما ، وهو لا يعنى بحال من الأحوال

مقاطعة الطرفين ، بله مخاصمتهما ، بل يعني الوقوف طرفا ثالثا ، وان شئت فقل يبقى كيانا عازلا مستقلا في رأيه راغبا في التعاون معهما ، أو مع أى فريق منهما ، على أساس التكافؤ التام ، والاحترام المتقابل .

ان الحياد الايجابي بهذا المعنى هو سبيلنا للحفاظ على ذاتية أمتنا ، والمحافظة على استقلالها ، بكل معانى الاستقلال ، وهو يعنى بالدرجة الاولى استقلالها في الرأى ، وعدم خضوعها لعقيدة من العقائد المتنافرة السائدة بين الطرفين ، بمعنى أنها لن تخضع لمشيئة أى من الطرفين خضوع التابع لمتبوعه الذى عليه أن ينصره ظالما كان ذلك المتبوع أو مظلوما ، وبعبارة أدق إن « العروبة » تعنى في لغة السياسة أن الأمة العربية حرة في اصدار أحكامها على تصرفات الدول الكبرى المتخاصمة على أساس من العدل الانساني ، دون تحيز أو خضوع .

ولا شك في أن هذا الموقف السليم هو الذى يحقق المعنى في وقوفنا بمنجاة عن الانحراف الذى انساق اليه الطرفان ، والذى يهدد الانسانية بكوارث قد يتعذر عليها النهوض بعدها .

والحياد ، بهذا المعنى ، هو سبيل الانسانية كلها للخلاص من الدمار المرتقب الذى تجره المحالفات ، والتكتلات الدولية على اختلاف أنواعها وصورها ، وتعارض القائمين فيها ، ولذلك صار يدعو اليه فريق كبير من محبى السلام فى العالم كله ، حتى من بين شعوب الدول المتخاصمة ذاتها .

وأحسب أن اللازم عليَّ أن أشير هنا الى أن القومية العربية تميز بوضوح بين « روسيا السوفيتية » من حيث هى دولة عظيمة لها شأنها الكبير في العلاقات الدولية ، وبين « الشيوعية » من حيث هى مبدأ سياسى اقتصادى تعتنقه هذه الدولة أو تلك ، ان القومية العربية تعتقد بجدوى صداقتها لروسيا ، وتذكر بالتقدير موقفها الكريم من قضايانا في السنوات الاخيرة خاصة .

ولكن من الجهالة أن نتصور سياسة روسيا كانت في كل ظروفها منسجمة مع مصالحنا القومية ويكفينا أن نذكر موقفها في هيئة الأمم أثناء إنشاء « إسرائيل » كما يكفينا أن نتذكر سياسة تشيكوسلفاكيا ورومانيا ـ وهما دولتان شيوعيتان تخضعان لسياسة روسيا ـ في مدهما الصهيونيين بالسلاح والعتاد الوافر الذى حقق لاسرائيل النصر في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وساعد على فرض الهدنة المزرية على دولنا السبع حينذاك فرضا .

وعلينا أن نتذكر موقف بولونيا واتفاقها مع « إسرائيل » بالسماح لفريق

اليهود بالهجرة منها الى « إسرائيل » وتمكينها من زيادة عددها وتحقيق هدف « بن غريون » في « جمع المشتتين » وجعل عودة عرب فلسطين اللاجئين الى ديارهم وأوطانهم أكثر استحالة وأعسر منالا .

وجوه للخلاف

ان من الجهالة والتفريط فى حق أمتنا ، أن نتصور أن دولة من الدول الكبرى ستكون دائما وأبدا منسجمة مع كل مطالبنا القومية ، إننا يجب أن نعمل على كسب ود هذه الدولة العظيمة وادامة صداقتها لنا ، ولكننا يجب أن نسعى لكسب صداقة دول العالم كله ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولكن الانخراط فى محور دولة من الدول ، أو جبهة من الجبهات يفقدنا هذا الوضع ويجعلنا آخر الأمر تبعا لفريق من الفرقاء حين تريدنا « العروبة » أن نبقى أحرارا بكل ما في الحرية من المعانى .

ان خلاف القومية العربية مع « الشيوعية » خلاف عقائدى ليس من الامانة العلمية نكرانه .

اننا نؤمن اننا في هذه المرحلة خاصة من مراحل تطورنا ، ملزمون بكفاح الاستعمار بكل قوانا بوصفنا أمة غير منقسمة على نفسها .

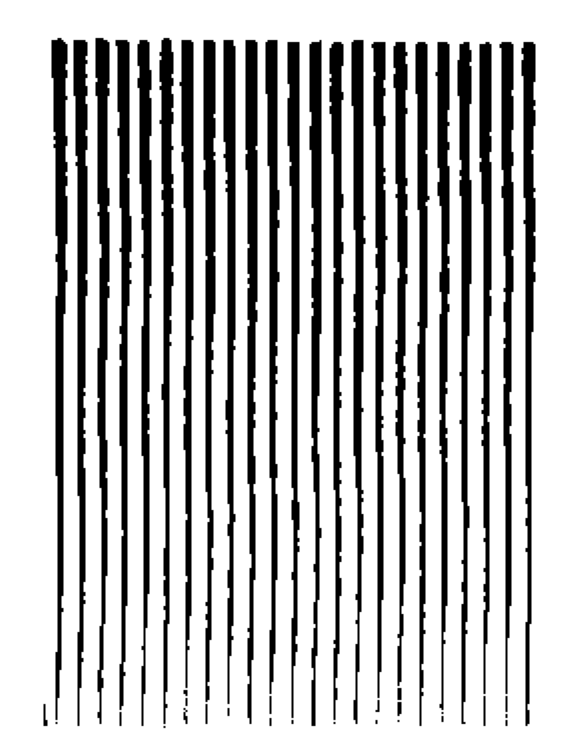
وفوق ذلك إن القومية بوصفها عقيدة تؤمن بمثل معينة ومبادىء روحية خاصة ، ترى في الحفاظ عليها ، والاعتزاز بها مطلبا أساسيا ، حين تريد الماركسية أن تفسر التاريخ الانسانى كله على أساس مادي صرف ، وبعبارة أدق إن العروبة حين تهتم بالمادة ، وتعنى بمصير الطبقات المحرومة من أبنائها ، وتسعى الى رفع مستواها واشاعة العدالة الاجتماعية بينها ، لا تغفل أهمية القيم الروحية التى تراها أساسا في حياة الأفراد والأمة كلها حياة هنيئة سعيدة .

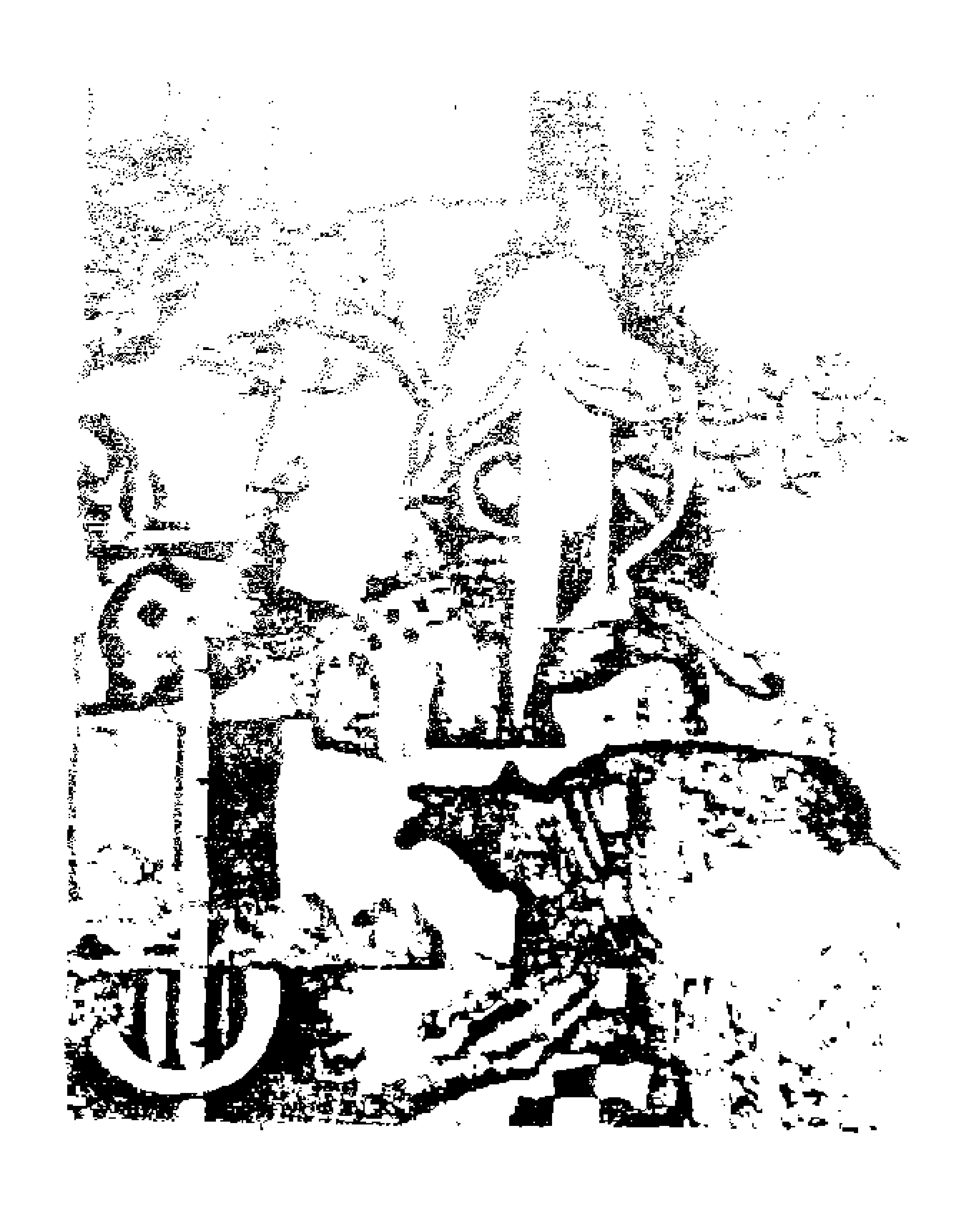
ان العروبة ـ كما أسلفنا ـ وسيلة وغاية ، وسيلة لجمع شملنا ، ورفع مستوى أفرادنا ، وتحريرهم من كل أنواع العبوديات الداخلية والخارجية ، والسير بهم قدما في مضمار هذه الحياة المتجددة المتطورة ، وهى فوق ذلك « غاية » تُراد لذاتها لأنها وحدها قادرة على الابقاء على ذاتية أمتنا ، وتمكينها من الابداع ، وإظهار عبقرياتها ، وتأكيد حيادها ، ومساهمتها الجدية في تحقيق الكرامة الانسانية والسلام العادل الشامل .

واني لادرك أن التهم التى توجه الى « العروبة » عديدة ، وأن مرجع هذه التهم سوء الفهم بسبب الخلط بين « القومية والقوم » ، و « القومية العربية الحضارية والعنصرية » ، « والقومية من حيث هى عقيدة » وبعض منتحلي القومية من الرجعيين والانتهازيين من الساسة ، وبين « القومية العربية الشاملة » و « القومية الاقليمية التى ليست من العروبة في كثير أو قليل » ، وبين « فكرتي الوحدة العربية والوحدة الاسلامية » ، وبين « القومية من حيث هى فكرة ، وبين طريق الحكم الصالح للأمة العربية » .

كما يرجع قسم آخر ـ من سوء الفهم ـ الى عدم التمييز بين القوميات المتحررة التى ظهرت جلية في آسيا وأفريقية بعد الحرب العالمية الثانية خاصة ، وبين القوميات العنصرية الاعتدائية التى تجلت في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وكانت من الأسباب المهمة في إثارة الحرب العالمية الثانية .

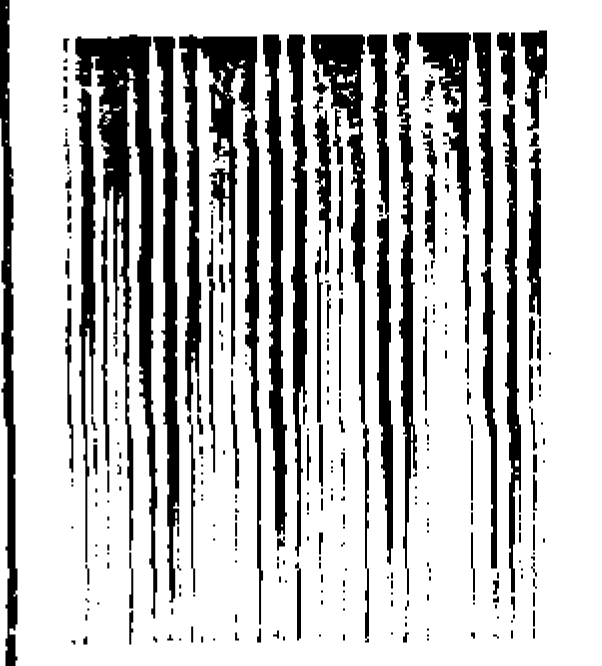
يضاف الى هذا كله ما أشاعه أعداء القومية العربية من اقليميين واستعماريين ورجعيين ، ومن أصحاب العقائد الأخرى التى ترى ـ عن قصد أو دون قصد ـ أن « العروبة » ضارة بمصالحهم الخاصة بسبب أوضاعهم ، أو بسبب العقد النفسية التى يقاسون منها من مفاهيم خاطئة ومفتريات لا أساس لها .





القومية العربية والنزعة الانسانية

د. عبدالله عبدالدائم



خلال سنوات نهضتنا الحديثة - نحن العرب - وهي نهضة نريدها قومية ، ونريد لها أساسا قوميا ، تبرز بعض الشكوك ويثور العديد من التساؤلات .

وعلى رأس هذه التساؤلات ما اتصل منها بمدى الاتفاق أو الافتراق بين النزعة القومية والنزعة الانسانية ، وكثيرا ما نطالع في نفوس كثير من الحريصين على الفكرة القومية شيئا من الاشفاق ، على الفكرة الانسانية المشتركة ، ذلك الاخلاص الذي يخيل اليه أحيانا أن هذه القيم الانسانية المثلى قد يعروها الاهمال أو الفتور عند الاخذ بالفكرة القومية .

العربي العدد ٣٠ مايو - آيار ١٩٦١ م

وما نريد ههنا أن نعود الى حديث مكرور سبق أن نفضته الاقلام كرة بعد كرة ، وليس غرضنا أن نبين من جديد عمق الصلة بين النزعة القومية والنزعة الانسانية ، وقيام تآزر وتواصل بينهما ، وحسبنا أن نؤكد بعض الحقائق المهمة في هذا الباب في الصيغ الآتية :

١ ـ التناقض الذي يخشاه بعضهم بين القومية والانسانية ، هو في حقيقة الأمر التناقض بين القومية والأممية ، لابين القومية والانسانية .

٢ ـ الحركات القومية في أصلها ونشأتها لم تكن حركات معادية للانسانية ، بل كانت على العكس حركات إنسانية المنزع حرة الأهداف ، هذا ما نجده في القومية الالمانية في بداية ظهورها على يد فيخته ، وهذا ما نلفيه في القومية الايطالية أيام « مازيني » وما نعثر عليه في الحركة القومية السلافية أيام « دوبرفسكي » و« شفاريك » و « كولر » وغيرهم ، جميع هذه الحركات القومية التي انطلقت في بداية القرن التاسع عشر قامت لدى شعوب مضطهدة مجزأة ، أرادت أن تحقق حريتها ووحدتها عن طريق الحركة القومية ، فضمَّنت بذلك هذه الحركة معنى إنسانيا منذ البداية ، إذ جعلتها تعني بالدرجة الأولى التحرر من الاستعمار ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وكان شعار هذه الحركات القومية دوما المناداة بحرية الشعوب وبعالم إنساني متآخ يزول فيه عدوان أمة على أمة .

٣ ـ أما انحراف بعض القوميات عن الأهداف الانسانية ، على نحو ما جرى في ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية فلا ينهض حجة على المبدأ القومي نفسه ، بل هو نتيجة تشويه مقصود للفكرة القومية ، اصطنعه أربابه لغايات سياسية وحربية ، وتنكبوا فيه طريق القومية الصحيح ، بل اتخذوا من القومية ذريعة لأغراضهم المعادية للقومية وللانسانية معا .

٤ ـ الحركات الانسانية في التاريخ ، منذ أيام الاسكندر الأكبر حتى الآن ، لم تكن حركات معادية للقومية ولم تفهم الدعوة الانسانية على أنها زوال لأطر القوميات ، وارتماء في أممية مسفوحة الحدود والأركان .

٥ ـ الفكرة القومية تؤمن بأن هدفها الأول والأخير هو الانسان ، هو تفتحه واستخراج طاقاته وامكاناته ، وهي ترى أن هذا التفتح الكامل للانسان يتم على أكمل وجه ضمن إطار حياته القومية ، فعن طريق حياته القومية ، وضمن تربته القومية يزكو الانسان ويعطي كامل مداه ، ويستطيع أن يسهم فعلا في حضارة أمته وفي حضارة الانسانية بالتالي .

وحسبنا هذا القدر فيما يتصل بالصلة العامة التي تقوم بين الفكرة القومية والفكرة الانسانية ، هذه الصلة التي لم نقصد إليها في بحثنا ، بل قدمناها بين يديه ، ليتخذ مكانه الصحيح ضمن الاطار الفكرى للحركة القومية العربية .

الانسانية والقومية

ذلك أن الذي نريد أن نشير اليه أولا وقبل كل شيء أن الصلة التي نجدها قائمة بين كل حركة قومية وكل حركة انسانية ، صلة تتحقق على أكمل وجه في القومية العربية ، ويرجع ذلك إلى سبب أساسي وهو أن هذه الصلة بين القومية والانسانية لدى الحركة العربية تؤصل جذورها من ماضي العرب أنفسهم ومن حضارتهم ، ومن الامور الجديرة بالتأمل أن كثيرا من سمات الحركة القومية العربية اليوم ، كما نريدها وكما يفهمها العقل الحديث الذي اتصل بالتجربة العالمية في هذا المجال سمات تُسْقَى جذورها البعيدة من الحضارة العربية ومن مقوماتها عبر العصور ، ولانغلو إذا قلنا إن الوعي العربي في التاريخ اتخذ في الجملة خطا يتصف بخصائص واحدة متكاملة مستمرة عبر العصور ، تُرفد اليوم الحركة القومية العربية الناهضة وتقدم لها الغذاء وترسم لها طابعها الاصيل .

وعندما نتحدث اليوم عن الطابع الانساني للقومية العربية ، أو عن الطابع الشعبي للقومية العربية ، أو عن الطابع الديمقراطي للقومية ، بل حتى عن الطابع الاشتراكي للقومية العربية ، فنحن نؤكد في الواقع خصائص رافقت الوعي العربي والحركة العربية في ماضيها ، ثم اغتذت اليوم بمعان جديدة ورفد جديد اشتقته من التجربة العالمية ومن المرحلة التاريخية التي يمر بها العرب .

والمنزع الانساني للقومية العربية اليوم هو كما نرى أحد المنازع التي تُسقى جذورها من التاريخ العربي البعيد ، والتي رافقت الحضارة العربية على مداها الطويل ، والحديث يطول عن هذا المنزع الانساني خلال الحضارة العربية الممتدة ، وحسبنا أن نشير الى أهم الصور التي تحدد معالم هذا النزوع

(أ) يتجلى هذا المنزع الانساني في التمازج الذي تم بين الحضارة العربية والحضارات العالمية عبر العصور .

وجدير بالرعاية أن هذا التمازج لم يكن شيئا طارئا في حياة العرب ، نقعُ عليه في عصور حضارتهم المتأخرة ، أي في العصر العباسي ، وفي الأندلس ، كما يخطر للبال للوهلة الأولى ، بل لقد كان هذا التمازج في واقع الأمر بعيد الأصول في حياة العرب ، يرجع الى أيام الجاهلية حيث نجده في ارتباط عرب الجزيرة منذ أقدم العصور بالممالك المجاورة عن طريق التجارة وغيرها ، كما نجده في الصلات التي قامت في أواخر العصر الجاهلي بين العرب ودولتي الفرس والروم ، ثم نجد هذا التمازج بعد ذلك في صدر الاسلام ، ولاسيما أيام الفتوحات الاسلامية الكبرى ، حيث أخذ ذلك التمازج أسمى أشكاله إذْ كانت الفتوحات العربية فتوحات ثقافية وروحية ، ولم تكن فتوحات حربية ، وإذ أدت الى تكوين رقعة ثقافية جديدة للأمة العربية لا إلى تكوين رقعة مكانية جديدة فحسب ، فلقد انتشرت ثقافة العرب بل دماء القبائل العربية عن طريق الفتوحات ، وكان التمازج على أبرز صوره وأشكاله بين العرب وبين الأمم الأخرى ، لأن حامله الأول والأخير كان الثقافة العربية الجديدة والرسالة العربية الجديدة ذات الطابع الانساني .

وفي أيام الدولة الاموية نجد التمازج يبلغ شأوا جديدا ، وذلك عن طريق حركة التعريب ، تلك الحركة التي لم تقتصر في أيامهم على نقل الثقافة العربية والدماء العربية الى الأمم المفتوحة ، بل جاوزت ذلك إلى خطوة جديدة مهمة ، لها معناها فيما يتصل بالطابع الانساني للحضارة العربية ، ونعني بهذه الخطوة الجديدة تعريب الدواوين الأجنبية ، والبدء بالتالي بنقل تراث الأمم الأخرى ، ولاسيما الروم والفرس ، إلى التراث العربي ، وهكذا بدأت الأمة العربية بعد فتوحاتها تأخذ كما أعطت ، وقامت حركة تأثير وتأثر متبادلين بينها وبين الحضارات الأخرى .

ونعلم جميعا أن حركة النقل هذه قفزت قفزة كبرى أيام العباسيين حيث نشطت حركة الترجمة ونظمت ، وأصبح تمازج الثقافات ظاهرة بارزة في حياة العرب .

ولا حاجة بعد هذا الى أن نُذكّر بالتمازج الأكبر الذي تم عن طريق الأندلس ، يوم نقلت الحضارة العربية إلى الأمم الاوروبية ، يوم كان نقلها هذا نقطة الانطلاق في تطور العقل الحديث وولادة الحضارة الحديثة ، وحسبنا في هذا المجال أن نذكر حقيقة مهمة ، وهي أن التراث العربي الذي تم نقله إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية فيما بعد ،لم يكن التراث الادبي أو الفلسفي

فحسب ، بل كان أولا وقبل كل شيء ، التراث العلمي ، كانت الابحاث التجريبية والروح التجريبية التي سببت ثورة الفكر الحديث ، وخلفت ما عرف فيما بعد باسم روح « بيكون » أي روحٌ تغلب الانسان على الطبيعة .

وهكذا نجد الاخذ والعطاء قائمين بين الحضارة العربية والحضارات الاخرى منذ أقدم عصور التاريخ ، بل نجد العرب يمثلون في تاريخ الانسانية الجسر الحقيقي الذي عبرت عليه الثقافات المختلفة لتنطلق في نهاية الأمر في آفاق الثقافة الانسانية الحديثة .

المعنى الانساني

(ب) على أن المنزع الانساني للحضارة العربية لايتجلى فقط في هذا التمازج الذي حققته بينها وبين حضارات الشعوب الاخرى ، وإنما يتجلى قبل هذا وأكثر من هذا في المعنى الانساني الذي حملته الحضارة العربية ، ونقصد بهذا المعني الانساني ما التزمت به الحضارة العربية من تعهد حقيقي لقيم الانسان وكرامته ، فالحضارة العربية حضارة احترمت الانسان وكرمته ، ولم تبح اضطهاده وامتهانه ، والايمان بالقيم الانسانية ، ايمان رافق العرب أيضا عبر العصور وطبقوه في سلوكهم مدى التاريخ .

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتعمق نظرة العرب الى الانسان ومدى ما فيها من تكريم له وايمان بمُثُله وقيمه ، وحسبنا أن نذكر شواهد على ذلك مما نقع عليه في الدولة العربية بعد تكوينها منذ أيام الفتح الاسلامي ، من مساواة بين الناس ، وابتعاد عن العصبية العرقية ، وتنكر للعصبية الدينية ، ولقد برزت فكرة المواطن في الدولة العربية في أبرز صورها منذ تباشير الحركة الاسلامية ، واتخذت اللغة العربية الرابطة الكبرى التي جمعت بين أبناء هذه الدولة ، وعُدت الروابط الاخرى غير الاسلامية روابط ثانوية ، وأبيحت ضمن الكيان العربي حرية الأديان وحرية المعتقدات ، بل واسهم أبناء الديانات الأخرى غير الاسلامية في بناء الدولة إسهام المسلمين في ذلك ، وأسهم المتعربون من غير العرب الأصليين في بناء الحضارة العربية إسهام العرب في هذا البناء ، ولقد استطاع العرب حقا منذ تلك الأيام الخوالي أن يثبتوا عمليا إمكان التوفيق بين الطابع العربي للدولة العربية وبين احترام الانسان بغض النظر عن جنسه

وانتسابه ، أي بين المنزع القومي والمنزع الانساني ، وجعلوا الجامع الذي يجمع بين جميع أبناء الدولة العربية هو العمل لهذه الحضارة العربية الموحدة والايمان بأهدافها ومثلها الانسانية ، بل لقد أضمروا تعريفا للعربي قوامه نسبة العروبة الى كل من تعرب وتكلم العربية وعمل لنصرة الحضارة العربية ، كما أضمروا تعريفا لغير العربي يجعله ذلك الذي يعادي الكيان العربي والرسالة العربية وان يكن من قريش .

والشواهد أكثر من أن تحصى ، تشهد جميعها على ما قُيِّض لغير العرب من شأن ومكانة في الدولة العربية ، كما تشهد على ما كان للعرب غير المسلمين من مشاركة فعالة في أعمال الدولة وما تم لهم من صون لمعتقداتهم ودياناتهم ، لقد كان شعار الدولة العربية دوما ما جاء في الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وكانت روحها ، « ولقد كرمنا بني آدم » .

(ج) ومن الجوانب الجديرة بالذكر ، في مجال المنازع الانسانية للحضارة العربية ، جانب قَلَّ أن يعار ما يستحق من اهتمام ، وهو شأن اللغة العربية نفسها في هذا الانفتاح على الانسان وعلى العالم ، فاللغة العربية ليست لغة قومية ضيقة ، وانما هي في طبيعة تكوينها لغة انسانية ، اكتسبت خلال العصور القدرة على أن تكون أداة للتواصل الانساني ولنقل الحضارة العالمية ، ومن الجوانب التي ما تزال تحتاج الى مزيد من الشرح والتوضيح ما تشتمل عليه كل لغة من خصائص الامة التي تتكلم بها ، وما تحمله من فلسفة ونظرة الى الكون والاشياء ، ومما يحتاج الى مزيد من التفصيل خاصة ما تشتمل عليه اللغة العربية ، في تراكيبها ومفرداتها وطريقة تعبيرها وتدفق أسلوبها ، من انفتاح على الفلسفة العالمية الانسانية .

لقد طاب للفيلسوف فيخته أن يستخلص خصائص الأمة الألمانية من لغتها وأن يوازن في ذلك بينها وبين اللغة الفرنسية ، مستخلصا بدوره خصائص الأمة الفرنسية من هذه اللغة ، وحلا له أن يقرر أن طبيعة اللغة الفرنسية لاتتيح إلا أن تخلق روح الكذب والخداع ، بينما تتجه طبيعة اللغة الالمانية الى انتجاع الصدق والحق ، ومهما يكن في قول « فيخته » من غلوٍّ ، يظل من الصحيح أن روح الامة كامنة في لسانها ، في أساليب هذا اللسان وتعابيره وما سجله من أقوال سائرة ومن نماذج في الكتابة والتعبير ثابتة راسخة ، واذا ما يُسِّر لابناء العربية مثل هذا العَوْد الى عبقرية اللسان العربي ، استطاعوا أن يدركوا كثيرا من الارتباط بين المنازع الانسانية للحضارة العربية وبين منازع لغتهم ، أوَ نعجب بعد هذا من أن يقرر مثل المستشرق « ماسينيون » مثل هذه العبارة :

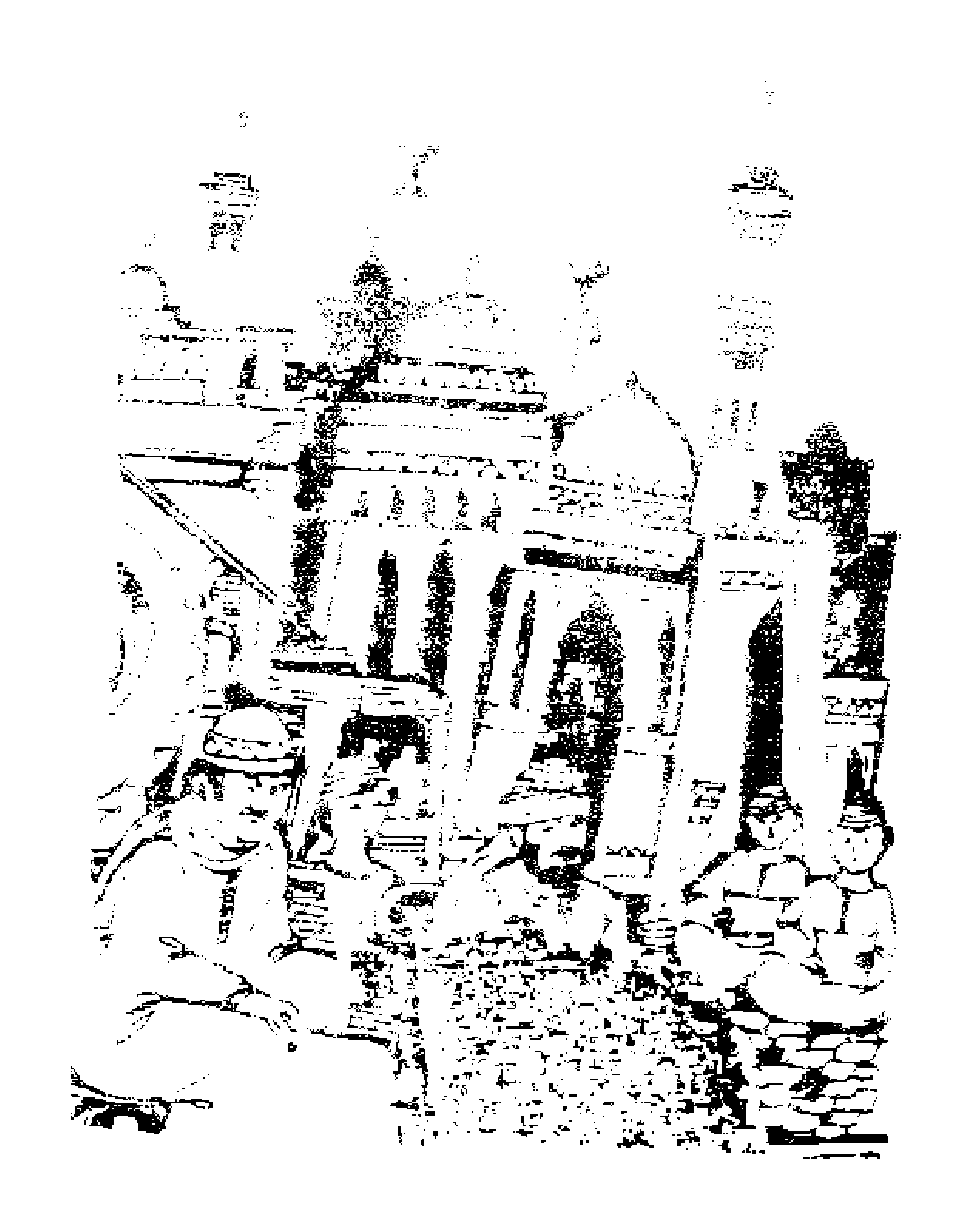
« لندفعْهم (يعني العرب المحدثين) الى احترام عربيتهم ، هـذه الآلة العضوية الصافية والصالحة لنقل اكتشافات الفكر عبـر الدول ، فـلا نحيلها مسخا مقلدا للغاتنا الآرية ، كـما لانتركهـا تتخثر في قـومية ضيقـة مثلما فُعِلَ بالعبرانية الجديدة على يد الصهيونية المتطرفة ، ان البعث الدولي للغة العربية عامل أساسي في إشاعة السلام بين الامم في المستقبل ، وقد كانت هذه اللغة في نظر كثير من الفرنسيين المسيحيين ـ وأنا منهم ـ وما تزال ، لغة الحريـة العليا ووحي الحب والرغبة التي تطلب إلى الله ـ من خلال الدموع ـ أن يكشف عن وجهه الكريم .

الوعي الروحي

وبعد ، فإن الرسالـة الانسانيـة رسالـة عريقـة عند العـرب ، واكبت تاريخهم الطويل ، وهم عندما يعاودونها اليوم ضمن اطار الحركة القومية العربية الجديدة ، يخلصـون في ذلك لمنـازع هي منهم في الصميم ، وهي لهم القوام والاصل ، إنهم يشعرون أعمق الشعور أن وجودهم القومي مرتبط في جوهره وأصوله بالوجود الانساني ، وأنهم لن ينعموا بهذا الوجود القـومي الا ضمن الوجود الانساني الشامل ، كما أنهم لن يجدوا الوجود الانساني في كامل مداه الا ضمن وجودهم القومي وفي هوائه .

إن الاتحاد العميق بين الاصالة والتجديد ، الذي هو سمة لازمة لكـل حضارة وليدة ، يتخذ لدى العرب شكل هـذا الاتحاد الـوثيق بين عـروبتهم وإنسانيتهم ، فَعَوْدهم الى عروبتهم يصلهم بالمنازع الانسانية ويريهم اياها في تلك العروبة ، واتصالهم بالمنازع الانسانية لابد أن يردهم في نهاية الامر الى قوميتهم التي تحمل هذه المنازع في صلبها .

والوعي الروحي الحق لأية أمة من الأمم لايتم في حقيقة الأمر الا عن طريق تحقيق هذا الاتحاد عن طريق تلك الجولة التاريخية التي تبين للفرد ارتباطه بأمته ، وارتباطه بالانسانية من خلال هذه الامة ، فلقـد انعقدت الصلة بـين تاريخ أمته وتاريخ الشعوب الاخرى ، بين حضـارة أمته وحضـارات الامم الاخرى ، ومن شأن هذا الانعقاد أن يجعل بحثه عن أصوله التاريخية ـ وهـو شرط لازم لكل وعي روحي لدى الفرد ـ بحثا يقوده في طبيعة الامر الى تاريخ أمته المتصل بتاريخ العالم ، والي تاريخ الانسانية من خلال تاريخ أمته .



مسائل قومية

د. محمد احمد خلف الله



عنـدما انتهى الفكـر السيـاسي الى تقـديـر القـاعدة السيـاسية المشهـورة : الأمة مصـدر السلطات،كـان ذلك يعني في الـواقـع أمـرين مهمين جدا : الاول منهما ، سقوط هذا الحق الآلي الـذي كـان يـدعيـه الملوك والأبـاطـرة لانفسهم ، والـذي كـانـوا يستنـدون إليـه في تصريف أمور الناس ، وتدبـير شئون الـرعية حيث كانوا يذهبون الى أنهم انما يفعلون ذلك بتفويض من الله ، وقد ترتب على هذا الحق أنهم لا يُسألون من قِبل الرعية عما يفعلون ، فقد كان أمرهم في ذلك إلى الله الذي فوض إليهم هذا الحق كما كانوا يدعون ، كما ترتب عليه أيضـا وجوب طاعة الناس لهم وتنفيـذ ما يـأمرونهم به ، وإلا وجبت العقوبة باعتبارهم عصاة الله بعصيانهم للملك أو الامبراطور .

أما الامر الآخر فقد كان إحلال الامة محل الله في تفويض الأمور الى الملوك والأباطرة أو الى رؤساء الدول الذين تختارهم الأمة لذلك .

وإحلال الامة محل الله في تفويض هذا الحق السياسي لرؤساء الدول يعني أيضا حق الامة في حسابهم على أعمالهم في هذه الحياة الدنيا ، وحقها أيضا في كل ما يترتب على هذا الحساب من تزكية لهم ، أو من عزلهم والثورة عليهم .

وهذا الحق هو الذي مكن الامم من تحقيق الدول القومية ، الدول التي تنطبق فيها الحدود السياسية للامة على الحدود القومية لتلك الامة .

وترتب على ذلك أن الامم تطالب بالاستقلال لتكوين هذه الدولة القومية حين تكون الأمة داخلة في تكوين دولة أخرى ، وبالمطالبة بالاتحاد والقضاء على التجزئة حين تكون هذه الامة موزعة بين دول عديدة ، قومية كانت هذه الدول أم غير قومية .

وهذا الامر لم يتحقق في سهولة ويسر ، وما كان له أن يتحقق الا بعد نضال عنيف في مواجهة الاوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت قائمة يوم أن تطور الفكر السياسي وقرر هذه القاعدة ، وهذه الحقوق .

لقد كانت هناك امبراطوريات عظيمة تحكم أمما عديدة ، وما كان لها أن تترك هذه الامم تستقل وتحقق ذواتها ، وتكوّن دولها القومية في سهولة ويسر ، ومن غير نضال ، كانت هناك الامبراطورية النمساوية ، والامبراطورية العثمانية ، ووقفت كل واحدة منها في وجه الامم التابعة لها لتحول بين استقلالها وتكوين دولها القومية ، ومن هنا كان النضال في سبيل الاستقلال وتحقيق الذات ، وتكوين الدولة القومية .

وكان هناك إلى جانب هذه الامم التابعة التي ناضلت ، أمم مستقلة ، ولكنها مجزأة ، وتقوم فيها دول عديدة يحكمها ملوك وامراء من أبناء هذه الامة ، كما كان الحال في كل من ألمانيا وايطاليا .

وكان على أبناء هاتين الامتين النضال في سبيل القضاء على التجزئة ، وتكوين الدولة القومية ، وكان النضال هنا في مواجهة الملوك والامراء ، الذين يريد كل واحد منهم أن يحتفظ بمملكته أو إمارته ، ولا يريد أبدا تحقيق الدولة القومية ، لأن ذلك سوف يكون على حساب مصلحته الشخصية ومنفعته الذاتية .

وناضلت الأمم في مواجهة كل هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية ، وانتهى النضال في كل هذه الميادين التي ذكرنا الى تكوين الدول القومية ، ومن

الغريب أن الأمم التي كانت تكون ـ مع الأمة العربية ـ الدولة العثمانية قد استقلت عن هذه الدولة ، وحققت ذاتها وكونت دولها القومية ، فعلت ذلك اليونان ، وفعله البلغار والالبان ، ومَنْ إليهم من شعوب شبه جزيرة البلقان ولم يفعله أبناء الامة العربية .

ولذلك أسباب من غير شك ، ولكن لا يمكن أن يكون من بينها هذا الذي يذهب اليه دعاة الاقليمية الذين يذهبون مذهب الاستعماريين الذين يجنحون ـ حفاظا على مصالحهم ـ الى أن هذا المجتمع المعروف بالمجتمع العربي إنما يتكون من أمم عديدة ، وليس من أمة واحدة .

المستعمرون ودعاة الاقليمية

والخطر كل الخطر فيما يذهب اليه الاستعماريون في أنهم يسوقون من يلوذ بهم من أبناء الامة العربية إلى « علمنة » هذا المذهب الاستعماري ، ومن خططهم في « العلمنة » أمران جديران بالاهتمام حتى لا ننزلق في هذا المزلق الذي يجروننا اليه .

وأول الأمرين ، الايحاء الى مراكز الدراسات في الوطن العربي بالقيام بنوع معين من الدراسات ينتهي حتما إلى الفكرة المرغوبِ فيها ، والوصول الى الغايات المبتغاة عن طريق الاساليب غير العلمية التي يُحافَظ فيها على الشكل فقط ، وهو أمر نعرفه في الدراسات الاجتماعية التي ينهج فيها أصحابها النهج الامريكي .

تقوم بعض المراكز للدراسات في الوطن العربي بلون من الدراسات عن القومية العربية ، وتنهج فيها النهج الاستعماري الذي تُحدَّد فيه الغاية أولا ثم يأتي الشكل العلمي ليثبت « علمنة » هذه الغاية .

تقوم بعض هذه المراكز بتصميم استبيان يجيب عنه أبناء الامة العربية لتقرير ما إذا كانوا أبناء أمة واحدة أو أبناء أمم عديدة ومختلفة ، والذين يوحون إلى أوليائهم بهذا الاستبيان انما يستهدفون الوصول الى غاية استعمارية بعينها هي أنّا أبناء أمم عديدة ومختلفة ، والنتيجة المترتبة على ذلك أن تبقي التجزئة ، وتبقى الدول الاقليمية ، ويتعامل الاستعمار والصهيونية مع كل دولة على

حدة ، ليظل الاستعمار في مركـز القوة ، وتـظل الدول الاقليميـة في مركـز الضعف ، في مركز الدول التابعة لا المستقلة .

والسؤال : هل هذه القضية من القضايا التى يصلح فيها الاستبيـان ، ويكون فيها حقا أسلوبا علميا ؟

أما أنا فأذهب إلى أن ذلك لايصح بحال من الاحوال ، إن الوطن العربي الذي يعلن في الاستبيان أنه غير عربي لا يُقبل قوله وتُرفض ارادته ، إن كَوْن هذا المواطن عربيا لم يكن بارادته وانما كان من ظروف تاريخية واجتماعية تفعل فعلها على الرغم من إرادته هذه إن كان يريد غير ذلك

وعندي أن الذي يجيب مثل هذا الجواب يكون واحدا من اثنين ، جاهل أو خائن .

هـو جاهـل حين يكـون غير مـدرك لهذه التغيـرات الجـذريـة التى لحقت بالمجتمعات االتي كانت تعيش في المنطقة من الخليج الى المحيط قبل التعريب ، والتى تعربت لهذه التغيرات الجذرية .

لقد تغير من هذه المجتمعات كل شيء : تغيرت اللغة،وتغير الدين وتغيرت العادات والتقاليد ، وتغيرت القيم الاخلاقية والمعايير السلوكية ، وأصبحت هذه المجتمعات كلها تمارس الحياة اليومية والحياة العامة بقيم ثقـافية جـديدة وحدت بينها ، وأحالتها إلى مجتمع واحد هو المجتمع العربي .

ووضع القيم الثقافية القديمة التي كانت تميـز هذه المجتمعـات بعضها عن بعض ، ونجعل منها أمما عديدة ومختلفة كالتالي :

قيم قُدر لها البقاء بدخولها في المركَّب الثقافي الجديد ـ كجزء من مكوناته ـ وقيم قدر عليها الفناء من حيث تناقضهـا مع الآراء والمعتقـدات ، والتقاليـد والعادات ، والقيم الاخلاقية والمعايير السلوكية التي دخلت هذه المجتمعات ، واستقرت فيها ، وأحدثت من التغيرات الجذرية في هذه المجتمعات ما أحالها الي مجتمع جديد يمارس الحياة على أسس حضارية جديدة .

وهنا نلفت الذهن الى أن ذلك لا يعني أبدا نسيان هذه المجتمعات لتاريخها القديم وحضارتها المجيدة ، وإنما يعني أن هذا القديم انما يظل تاريخا ما دامت الحياة لا تمارَس على أساس منه .

إن كل هذه الشعوب التي تعربت إنما تمارس حياتها اليومية وحياتها العامة على أساس من الحضارة الاسلامية العربية ، وليس على أساس من الفرعونية أو البابلية أو الاشورية ، أوالفينيقية ، أو البربرية أو ما أشبه .

ان كل هذه الحضارات قد انتهت الى ذاكرة التاريخ ولم يبق لها صلة بالحياة اليوم ، إلا ذلك الجزء الذي قبلته الحضارة العربية الاسلامية وأصبح جزءا من مركبها الثقافي .

قد يجهل مواطن هذه الحقائق ، ويجيب على أساس مما يستمده من ذاكرة التاريخ وليس مما يستمده من واقع الحياة .

وهذا نرفض قوله لانه جاهل .

أما الخائن فهو ذلك الذي يعرف كل هذه الحقائق ولكنه يتجاهلها ، أو يتعامى عنها ، لان المرغوب لديه والمطلوب منه أن يقرر أنه ليس من أبناء الامة العربية ، أو أن هذه الامة العربية أمم عديدة ومختلفة وليست أمة واحدة .

ذلك هو المطلوب من الخائن .

الأمة والدولة

أما الامر الآخر المخطط له عند الاستعماريين ومن نحا نحوهم ، ولاذ بهم ، فذلك هو الخلط المقصود ، أو اللبس المقصود بين مفهوم الأمة ومفهوم الدولة .

يذهب هؤلاء الى أن الدولة هي الأمة ، وأن الأمة هي الدولة ، يفعلون ذلك لان نظرتهم العلمية قاصرة عن أن تدرك الأبعاد التي تحيط بهذه القضية ، فليس في كل الحالات يمكن أن ينطبق مفهوم الدولة على مفهوم الأمة وانما يحدث ذلك في حالة واحدة فقط .

وقصر النظر عند هؤلاء الذاهبين هذا المذهب مردود إلى عاملين ليس من شأنهما أبدا أن يثبتا أن مفهوم الأمة هو مفهوم الدولة في كل الحالات .

العامل الاول من هذه العوامل أن دوائر المعارف القديمة جداوالتي وضعت من التعريفات ما يلائم الاوضاع السياسية يومذاك ، كانت قد وضعت للامة مفهوما يماثل ذلك المفهوم الذي وضعته للدولة ، فعلت ذلك دائرة المعارف الفرنسية ، وفعلته دائرة المعارف البريطانية .

لقد كانت الدولة هي المملكة أو الامبراطورية ، أي هي كل ما يدخل في حوزة الملك أو سلطة الامبراطور ، وكانا يستمدان سلطانهما من الله ، وليس من الامة . .

وهذا المفهوم التاريخي قد قُضي عليه ، وأخذت دوائر معارف الدولتين المشار اليهما ، فرنسا وانجلترا ، تفرق بين مفهوم الدولة ومفهوم الامة من حيث أن الاوضاع السياسية والاجتماعية الحديثة قد دفعت بها الى ذلك .

واذن فالتمسك بالمفاهيم المعدول عنها لايكون أبدا الا لهدف جديد ، هدف يفهمه الاقليميون وسادتهم الاستعماريون الذين يقلبون الحقائق العلمية في سبيل الاهداف الاقتصادية والسياسية .

والعامل الآخر الذي يستند اليه هؤلاء في اللبس القوي الذي يقيمونه بين مفهوم الامة ومفهوم الدولة هو ذلك الاصطلاح الدولي العالمي في هيئة الامم المتحدة .

ان الهيئة ليست في الحقيقة هيئة للامم وانما هيئة للدول ، من حيث أن عضويتها مقصورة على الدول ـ الدول التي نالت حريتها واستقلت وكونت لها ذاتا مستقلة عن غيرها ـ أما الشعوب التي تدخل في اطار الاستعمار فليس من حقها حق الانضمام الى هذه الهيئة .

وهنا يمكن أن نقف معا عند الاوضاع السياسية والاجتماعية التي تكشف عن الحقيقة ، وتظهر لنا في وضوح وجلاء ان كل الاوضاع السياسية والاجتماعية تثبت أن الامة شيء والدولة شيء آخر ، وانهما لا يتماثلان الا في حالة واحدة ، ووضع بعينه .

يتماثل مفهوم الدولة مع مفهوم الأمة في حالة واحدة وفي وضع سياسي بعينه ، هو الذي تكون فيه الامة قد حققت ذاتها بالحرية والاستقلال وكونت دولتها التي تكون فيها الحدود القومية للأمة .

أما في غير هذا الوضع فليس هناك تماثل أو تطابق ، وانما تكون الدولة غير الامة .

الألمان والعثمانيون

والامثلة على ذلك عديدة نشير الى بعضها .

لم تكن ألمانيا أو ايطاليا قبل الوحدة الألمانية أو الايطالية دولة واحدة وانما كانت كل واحدة منها مجزأة الى دول عديدة .

وحين تمت الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية أصبحت ألمانيا دولة واحدة وايطاليا دولة واحدة ، أي دولة تنطبق فيها الحدود السياسية على الحدود القومية ، ودولة هي الأمة أو أمة هي الدولة .

أما قبل الوحدة فلم يكن يصح أبدا أن يقال إن الدولة هي الأمة وإنما الذي كان يصح هو أن الأمة الألمانية مجزأة الى دول عديدة .

ويؤكد هذا القول الوضع السياسي والاجتماعي في الأمة الالمانية اليوم .

بعد الحرب العالمية الثانية اتفق حلفاء الحرب على تقسيم الوطن الالماني والأمة الالمانية ، وقامت تبعا لذلك دولتان ألمانيتان نعرفهما جميعا : المانيا الشرقية التي تمارس حياتها على أساس من النظام ا لاشتراكي ، وألمانيا الاتحادية التي تمارس حياتها على أساس من النظام الرأسمالي ، فهما دولتان في وطن واحد وفي أمة واحدة .

وواضح تماما أنه ليس يصح علميا على حال من الاحوال ، أن يقال هنا إن الدولة هي الامة وإن الأمة هي الدولة .

وهناك مثل آخر نسوقه هو مثل الدولة العثمانية التي انتهت بانتهاء الخلافة الاسلامية .

من المسلم به أن هذه الدولة كانت تتكون من أوطان عديدة وأمم عديدة، كانت تتكون من العرب والترك واليونان ، والالبان ، والبلغار ، وغير ذلك من شعوب شبه جزيرة البلقان ، ولم يكن يصح أبدا أن يقال ـ مع هذا التكوين الذي تختلف فيه الامم جنسا ، ولغة ودينا ـ إن الدولة هي الامة ، وإن الامة هي الدولة .

ان هذه النغمة الاستعمارية إنما تستهدف أمرا واحدا من وراء هذا الخلط والتلبيس بين مفهوم الامة ومفهوم الدولة .

وهذا الهدف هو أن يعتقد أبناء الامة العربية أن كل دولة من هذه الدول العربية إنما هي أمة بذاتها .

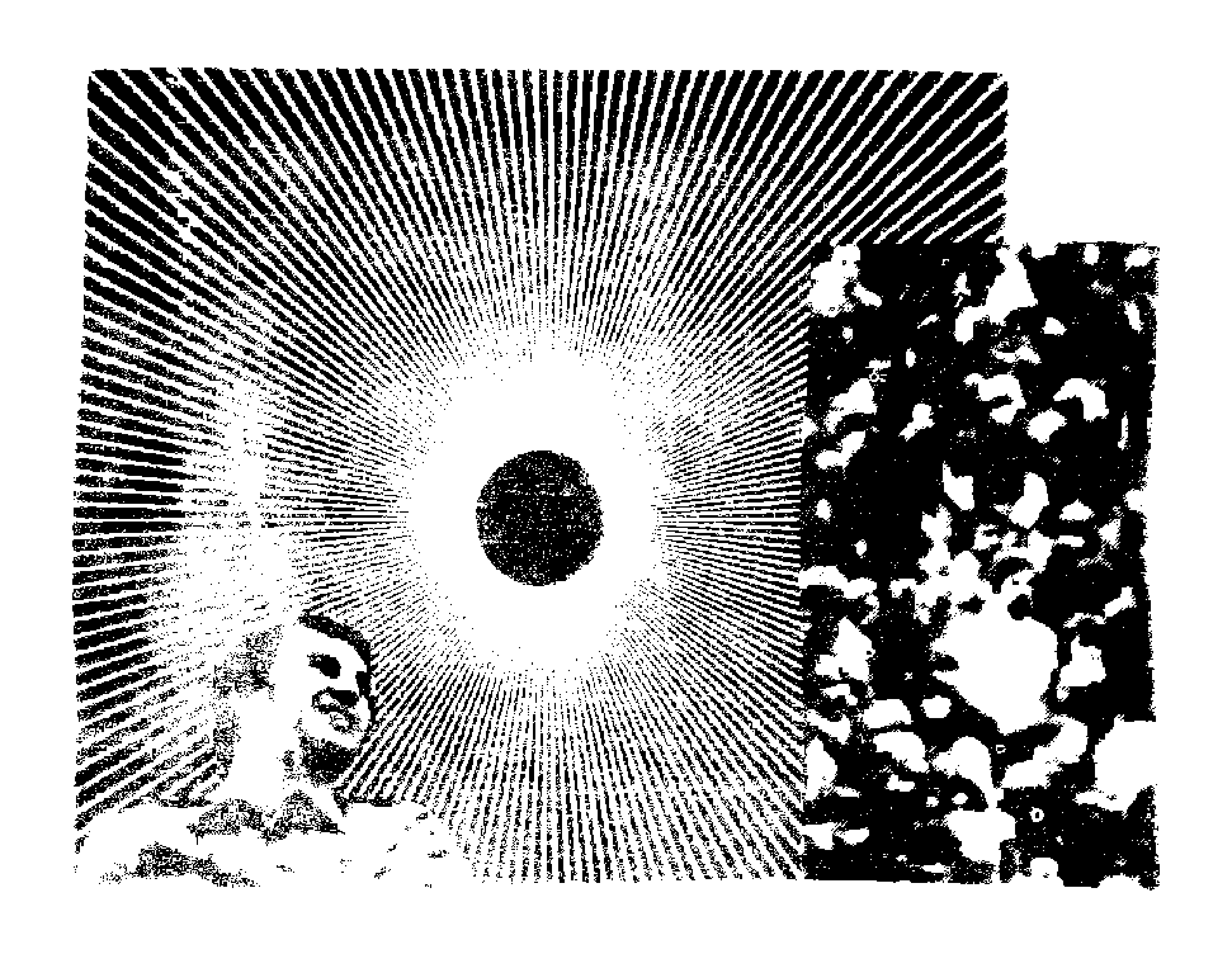
وهذا إنما يعني أن يقف المواطن العربي إلى جانب دولته ، على أنه ابن هذه الدولة ، أي هذه الامة .

ان المستهدف من هذا الخلط هو بعينه المستهدف من هذا الاستبيان ، انه يثبت الاقليمية في الوطن العربي وبين أبناء الامة العربية .

وليس من قبيل الصدفة أن يبرز الأمران بين أبناء الامة العربية في وقت

معا ، إنه الأمـر المخطط،والـذين خططوا لـه هم من غير شـك أعداء الامـة العربية .

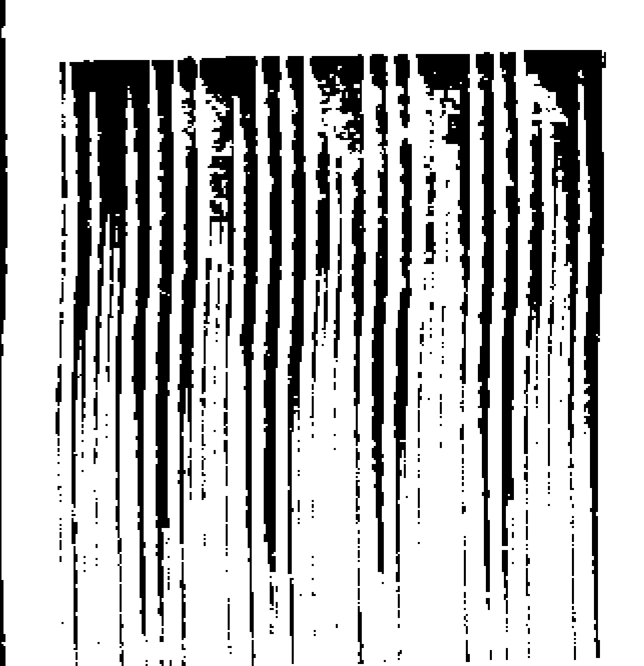
انهم الذين يخشون الوحدة ، وأن تصبح الامة العربية قوة يحسبون هم حسابها منذ الان .



الفصل الرابع

تحديات وصعوبات





الشعوبية وموقعها في حياتنا القومية

د. أحمد زكي

قال الفتى للشيخ : هل فصّلتم لنا أمر الشعوبية تفصيلا ، وقلتم لنا فيه قولا جميلا ؟

فصمت الشيخ ساعة ثم أنشأ يقول :

قال الشيخ : أعرفت ما قابيل وما هابيل ؟

قال الفتى : هما ابنا آدم على ما أحسب .

قال الشيخ : أعلمت أنهما اقتتلا ، ولم اقتتلا ؟

قال الفتى : قتل قابيل هابيل ، من حسد على ما أذكر .

قال الشيخ : ففي الذي حدث بينهما تجد بذور الشعوبية الأولى .

قال الفتى : وكيف ، وما كان قابيل بشعب ولا كان هابيل ؟

قال الشيخ : كان فيهما الحوافز التي حفزت الناس من بَعد ، لّما صاروا شعوبا ، الى التقاتل والتحاسد ، ان آدم كان ذا أسرة ، وهي هكذا اقتتلت ، ومن الأسر نشأت الجماعات الصغيرة فتناحرت ، ثم تسالمت وتكتلت لماً بان لها خطر من الناس أكبر وأضخم ، وانضم كل ذي وشيجة من رحم الى وشيجته ، فكانت القبيلة ، واختصمت القبائل على الماء ، واختصمت على العشب ، أو هي اختصمت على خير الأرض حيث الخير كثير وفير ، وعليه تقاتلت ، والنصرة في الحرب كسب وفخر ، والانهزام خسارة ومذلة فكان التفاخر بالبطولة حتما ، وكان من الضروري حماية هذه البطولة ، وما خلقوا حولها من معان جميلة ، وصار لابد من ردها الى أصل ثابت على الزمان ، فردوها الى الأرومة ، فكل قبيلة تدعى أنها خير قبيلة ، وانها أصل قبيلة ، وكثيرا ما ردوا أصولها الى أسماء في التاريخ البعيد ضخمة ، فأصبحت الأرومة عندهم كل شيء ، هي ميزان القيم في الماضي ، وهي ميزان القيم في الحاضر والمستقبل ، هي ميزان ثابت فعندهم أن الكريم لا ينجب الا كريما ، مهما اختلف الزمان ، واللئيم لا ينجب الا لئيما مهما تباينت العصور .

وتستقل القبيلة بالأرومة العليا ، وتعطي من تحسبه دونها من القبائل أرومات دنيا .

قال الفتى : وما نسمي هذا ؟

قال الشيخ : سمِّه يا فتى ما تشاء ، لك أن تسمي ما وقع بين قابيل وهابيل أنانية ، ولك أن تسمي ما وقع ويقع بين القبائل قبلية ، اختلفت التسمية والظاهرة واحدة ، ظن قابيل أن هابيل أكثر حظوة عند الله فقام بقتله ، وظنت

القبيلة أنها آثر بخير الأرض فقامت تقاتل عليه ، والقتال لابد فيه من الثقة بالنفس ، فابتدعوها أصالة عزيزة كريمة قديمة ، لها الشرف كله ، ولها الغلبة والعزة دائما وأبدا .

قال الفتى : ان هذا لهو الضلال .

قال الشيخ : لايا فتى ، ما من شيء يمهد للعيش بضلال ، انها أكاذيب ، نعم ، ولكنها تنجيك من الموت ، انها أكاذيب تحفظ روح القبيلة عالية ، ان الروح التي تتضعضع ، والسيف الحاكم ، لها الخسر ، ولكن الروح المتماسكة ، ولو بمساك كاذب ، تكسب النصر ، ومع النصر الطمأنينة والأمن .

قال الفتى : تسميه ـ رعاك الله ـ كذبا ، وتنكر أنه الضلال .

قال الشيخ : انه كذب غير واع ، دعوى تظهر في قول بطل يتخطر الى الحرب أو شاعر أخذته النشوة في نصر عند معركة ، يتداولها الناس ، ويتوارثها الأعقاب ، يؤمنون بها ايمانهم بوجودهم، ويُسهِّل عليهم الإيمان بها أنها تجري مع آمالهم صاعدة ، في طريق واحد ، وهو طريق تدفعهم الى السير فيه ضرورات الحياة ، ولا سيما ان كانت قاسية .

القبلية والاسلام

قال الفتى : واصطناع المجد قد يحفزهم على الأخذ بأسبابه .

قال الشيخ : مرحى ، يا فتى ، مرحى ، وهكذا فعلت هذه الخدع بكثير من القبائل ، فكما تسابقت كذلك الى اكرام الضيف ، والى النجدة ، والى العفو ادلالا بمقدرة ، والى صنوف من الفعال الطيب يسلكون بها الى الشرف طريقا معبدا معروفا .

قال الفتى : وهل كان هذا في العرب وحدهم ؟

قال الشيخ : وهل أنا ذكرت العرب حتى تفهم مني أن القول مقصور عليهم ، ان الانسان انسان حيثما كان ، والقبائل انتشرت في شرق الأرض كما انتشرت في غربها على السواء ، وانتشرت حيث الرمل الأصفر ، وحيث الأرض الخضراء والشجر ، ومنها الذي تنقل وترحل ، ولكن الحال واحدة ،

والخصومة واحدة ، وحوافز تفعل في الناس ، حيثما كانوا في الأرض واحدة ، فهي فعلت في العرب كما فعلت في سائر الناس .

الفتى : ولكن الاسلام جاء فوحد العرب ، فلا جاهلية ولا قبلية .

الشيخ : نعم ، ولكن إلى حين ، لقد كانت القبلية عند العرب أشد من أن يطفئها القليل من السنين ، وكثيرا ما كان الحس بالقبيلة أقوى من الاحساس بالامة ، ففعل هذا ما فعل بكيان الدولة ، نكبات في الأندلس في مغرب الأرض ، ونكبات في خراسان في مشرقها ، ونكبات في الصميم من ديار العرب .

وراح الشيخ يفكر ، يحاول أن يتذكر شيئا ، ثم انبرى ينشد .

قال الشيخ :

« ألا جعل الله اليمانين كلهم
فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان »
« ولولا عُرَيْقٌ فيَّ من عصبية
لقلت وألفا من مَعَدٍّ بن عدنان »
« ولكن نفسي لم تطب بعشيرتي
وطابت له نفسي بأبناء قحطان »

الفتى : لمن هذا ؟

الشيخ : لرجل عربي من بني أسد لا أذكر اسمه ، قاله يمدح يحيى بن حيان ، ان الأمثال من هذا في الدولة الأموية والعباسية كثيرة ، أذكر أن « المبرد » روى عن رجل من الأزد أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : الا تدعو لأمك ، فقال : لا ، انها تميمية .

ولقد بلغت العصبية بين مضر واليمن في خراسان طورا عنيفا ، جعل التزاوج بين الفريقين يحمل معه الازدراء والمسبة ، وهدم اليمنيون دور المضرية أثناء الحرب التي جرت هناك ، قالت امرأة من ضبة :

لابارك الله في أنثى وعذّبها
تزوجت مضريا آخر الدهر

الفتى : وأين العروبة في كل هذا ؟

الشيخ : جرت في العرب النزعتان معا عند ذاك : الاحساس بالقبلية ، والاحساس بالعروبة وبأنهم أمة ، وكان الاحساس بالقبيلة أكثر ظهورا ، لأن العرب كانوا عند ذلك سادة، فسيادة العرب كأمة كانت أمرا مفروغا منه ، ومع ذلك نجد في تلك العصور من يشيد بالعرب بحسبانهم أمة فيقول :

أنا من النفر الذين جيادهم
طلعت على عاد بريح صرصر
وسلبن تاجَيْ ملك قيصر بالقنا
واجتزن باب الدرب لابن الأصفر

وعنى ببني الأصفر الروم .

الفتى : وأين الشعوبية من كل هذا ؟

الشيخ : الشعوبية لفظ سمع على الأرجح في أواخر الدولة الأموية ، أو في أوائل الدولة العباسية ، ولكن أحسب أنه ظهر مكتوبا أول ما ظهر في كتابي « البيان والتبيين » و« البخلاء » للجاحظ ، وهو كتبهما في عهد المتوكل ، ثم غلا المذهب آخر الأمر فحط من قدر العرب ، وأنت تقرأ « لسان العرب » فتجد صاحبه يقول : « والشعوبي هو الذي يصغر من شأن العرب ، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم » .

وقَوِيَ هذا المذهب في عهد الرشيد والمأمون لَمَّا أحس الموالي بقوتهم وسلطانهم ، وصف الجاحظ الدولتين الأموية والعباسية ، قال : دولة بني مروان عربية أعرابية ودولة بني العباس أعجمية خراسانية .

قال الفتى : هل معنى هذا أن الشعوبية كانت في فارس دون سائر الأقطار ؟

قال الشيخ : في فارس بدأت ، لأن الموالي كانوا من فارس ، وما كل فارسي كان شعوبيا ، انما الشعوبية كانت في تلك الأزمان ، على الأكثر ، عند ذوي الطمع في منصب أو ولاية ، وأسموها شعوبية في زمن لم يكن للشعوب فيه صوت يسمع ، ان الشعوبيين كانوا اصنافا مختلفة ، فهم فرس ، ومنهم نبط ، ومنهم قبط وحتى في الأندلس ظهر ابن غرسية ، ووضع رسالة في

« الشعوبية » ، ورد عليه كثير من العلماء ، على أني أسألك بدوري يا فتى : ما اهتمامك بالشعوبية ، وهي مذهب من مذاهب تاريخية طواها الزمان ؟ !

الفتى : وكيف طواها الزمان ؟

الشيخ : غلب الترك على كل قطر عربي ، وجرَوْا بكلكلهم على أقطار عربية وغير عربية ، وجرى الزمان ، كما تجرى الآلة البخارية باسطوانتيها الثقيلتين في الطريق حين يرصف ، فتسوى بين أجزائه ، فلا تترك بارزا الا طرحته أرضا .

الفتى : ولكنا ما زلنا نتحدث عن الشعوبية اليوم ، كما كنا نتحدث بالأمس .

عند ئذ كانت الحجرة بلغت من الاعتام بغروب الشمس مبلغا كاد أن يحجب البصر ، فصاح الشيخ بالفتى أن أوقد السُرُج .

قال الفتى : لست أرى من سراج .

قال الشيخ : كل ما أضاء فهو سراج ، فأدر مفاتيح الكهربا .

وعاد الشيخ الى حديثه :

قال الشيخ : سراج اليوم غير سراج الأمس ، وكذلك شعوبية اليوم غير شعوبية الأمس ، وشعوبية الأمس كانت شعوبية تفاخر واستعلاء ، والزمن لم يبق لأصحاب الشعوبية الأولى ما به تفخر أو تستعلى ، الا أن يكونوا نباشي قبور .

قال الفتى : تعنى أنهم ينبشون القبور

انهم ينبشون القبور

قال الشيخ : ان في الناس ـ كل الناس ـ نفرا يجدون بينهم وبين الحاضر جفوة ، لعجز منهم عن مجاراة الحياة الحاضرة ، أو لقسوة في الزمن جائرة ، ويعشون من أشعة الشمس في ضحوة النهار فيهربون منها الى ظلمة القبور ، ينبشون فيها عن أوراق من ذلك الماضي السحيق ، هم اياها يحرقون ، وبنارها يستدفئون ، وعبيرها يستنشقون واليه يرتاحون ، وتجد طائفتهم التي أجاعها الحاضر في هذا الماضي غذاء ، وتجد أنفسهم ـ تلك التي عطلها الحاضر وأبطلها ـ مشغلة ، انه الهرب من اليوم والغد ، الى هذا الامس البعيد ، أهربهم القصور عن مواجهة اليوم بوقائعه الصارخة ، وعن الاستعداد للغد وهو ذو جهد جهيد .

قال الفتى : فالى اي شيء صارت الشعوبية اليوم ؟
قال الشيخ : الشعوبية اليوم لاتكون الا عند قلة من الناس ، ولا توجد في كثرة منهم ، ويختلف الشعبان ،وإني أقصر نظري على الأمة العربية ، فأبدأ من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي ، فلا أجد لهذه الشعوبية بمعناها القديم وجودا ، ان الناس اليوم ، في الوطن العربي ، لا تحس بفرس أو روم ، ولا تكاد تسمع بها الا بمقدار ما تسمع عن سائر الأمم ، وهما بين الأمم أقل إسماعا ، انها أقليات لاشعوبيات ، وما بقي بعد ذلك فاعتداء سياسي صريح .
قال الفتى : ألا حدثتنا عن الأقليات أولا ، ثم عن ذلك الذي تسميه اعتداء سياسيا صريحا .
قال الشيخ : أما الأقليات في الوطن العربي - ان صح أن هكذا نسميها - فهي غاية في القلة ، وأنت تجد لها لغة الى جانب لغة القطر الذي هي فيه لغة الكثرة ، وهي قلة عاشت مع الكثرة قرونا طويلة ، واشتركت واياها فيما جاءها به الزمان من خير وشر ، واقتسمت معها أسلوب عيش واحد ، وثقافة واحدة ، واحداثا في التاريخ واحدة ، وامتزجت بالشعب في دولة واحدة ، وشاركت في الحكم ، وتحملت فيه مسئوليات نحو سكان البلاد جميعا كاملة غير منقوصة ، فأقليات هذا حالها - حتى ولو بقيت لها لغة تنظر اليها - أقليات صارت بعض القوم الذين هي فيهم ، فهي منهم كالحشا من الجسم ، انفصالها لا يمكن أبدا ، انه البتر كما يبتر الذراع ، يترك الجسم عاجزا ، ويترك الذراع أشد عجزا .
ان الأقليات ظلت هدف المستعمر يحيي فيها الريبة ، ويوقظ المخاوف ، ويحاول أن يصلها بعلائق عاطفية قديمة بليت حتى انقطعت حبالها ، وقد تبحث عن أطرافها الأخرى المقطوعة فلا تجد لها أصلا ، وغاية المستعمر من ذلك لا شك الفرقة ، وهي حيلة ، وهي وسيلة ، آتت أكلها قديما ، ثم انفضحت فلم يعد يؤمن بها اليوم أحد .
ان هذه الأقليات ما يصح اليوم أن نسميها أقليات ، انهم بعض الأمة العربية ، على ما اتفق عليه من معاني القومية الحديثة ، ينهضون واياها ، ويحاولون بلوغ السماك معا ، ما كسباه فهو كسب لهما جميعا ، وما خسراه فعليهما تبعته جميعا ، خطو واحد ، على السلام ، في سبيل هدف واحد ، لا يختلف عن سبيل تسير فيه الانسانية جميعا الى الخير .
وصمت الشيخ برهة كأنما أزمته الفكرة ، ثم استأنف يقول :
قال الشيخ : وما الأقليات في الوطن العربي وحده ، ان الأقليات ملء

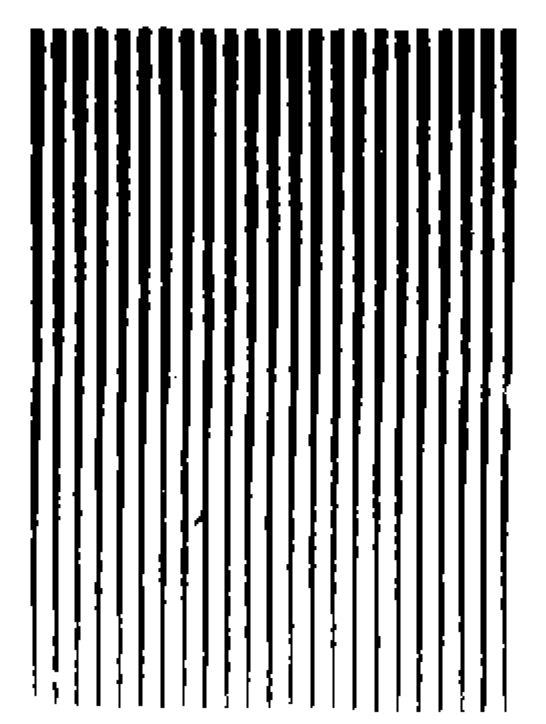
الأرض، وحيثما كانت الدولة ، ومع هذا فهي راضية حيث كانت من الأرض ، وهي أكثر رضا عندما يسود العدل ويتبادل الود وتطيب العشرة ، ومن هـذه الأقليات ، في أوروبا وأمريكا ، وفي آسيا ، أقليات لم تحظ بنصيب من التقدير كاف ، ولكن مصالحها المتشابكة تأبى عليها انفصالا ، ان الأقليات في الدول ، لو أنها طالبت بانفصال ، فأجيب اليه ، اذن لتفسخت الـدول جميعا تفسخـا ذريعا ، التارك فيه أشقى من المتروك .

قال الفتى : فما الاعتداء السياسي رحمك الله ؟

قال الشيخ : تفتيت وحدة الشعب بادخال عناصر أخرى ، تنقل اليه نقلا ، وتجعـل من الشعب الواحـد شعبين متخـاصمين ، قلة وكثـرة ، وتبقى القلة كالعظمة في الزور ، فلا هي تنزل فتنهضم ولا هي تخرج فتريح .

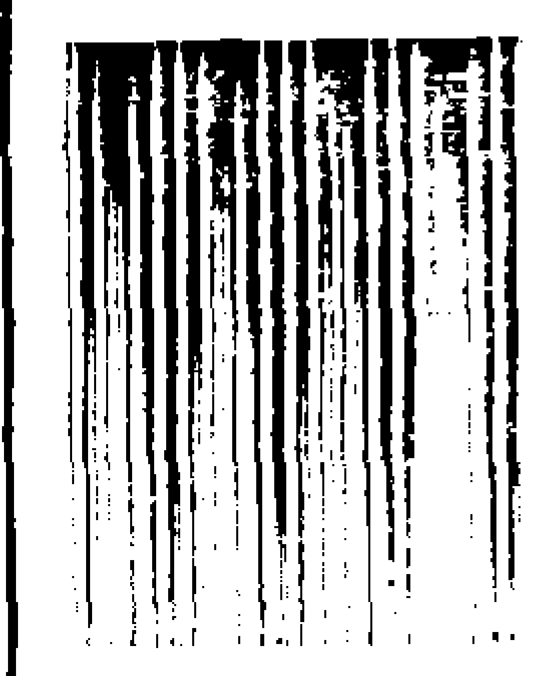
قال الفتى : والأمثال ؟

قال الشيخ : أو عميت يا فتى حتى لا ترى مثلاً ، مثل الى يمينك ، وآخر الى يسارك ، وهذا اسلوب في الاعتداء السياسي شائع في الأرض ، كانت فلسطين شعبا عربيا متجانسا واحدا ، فاقتحموا فيه ، ثم أقحموا ، ثم انقلبالاعتداء السياسي ، وقد كان تسللا ، الى اعتداء صريح ، والنتيجة شعب قليل في طيات شعب كثير ، وانها والله الدائرة سوف تدور ، وعلى الباغي تدور الدوائر ، ان عاجلا ، وان آجلا .



العروبة وآلام المخاض

د. عبدالله عبدالدائم



لاشك أن المرحلة التي نحياها اليوم هي نقطة الانعطاف بين أمس الأقطار العربية وغدها ، والجيل الذي يعيش على مفترقات طرق التاريخ جيل سعيد سعادة حية عميقة ، إنه يعيش مخاضا روحيا وحقيقيا ، فيه ينفصل عن ماض قريب جديب ما يزال يحمل أوزاره ليتجه الى مستقبل خصيب ما يزال يتشوف اليه ويلمحه في الأفق دون أن يقبض عليه .

العربي العدد الخامس عشر فبراير ـ شباط ١٩٦٠

وفي هذه المنزلة ، منزلة استشراف الجديد ، والصراع مع رواسب القديم ، تجد النفوس الفتية كامل تفتحها ، وتلتمس مجال نشاطها الخلاق .

إنها حقا « تعيش في خطر » على حد تعبير « نيتشة » ، شاكية السلاح دوما تترقب وتتوفز وتحمل أمانة الاجيال .

والجيل العربي اليوم ، واحد من تلك الاجيال التي تعيش مرحلة تاريخية متفجرة بالقلق المبدع والتوفز الخلاق ، إنه جيل يعيش حقا مع التاريخ ، حين يعزم ويصمم على أن يهب للتاريخ معنى ، ويضع فيه ميسما ، وفيه تتحقق « التاريخية » ويتحقق القلق التاريخي ، اذا أردنا أن نستخدم رطانة الفلاسفة ونذكر بمصطلحات الفيلسوف الألماني « هيدجر »

أو ليس الشعور الحق بالحرية ، الحرية الخلاقة المحققة للوجود في أعمق أعماقه ، هو أولا وقبل كل شى وليد « التزام » نلتزمه ، وعزم نعزم عليه ، به نقطع مجرى الأشياء الرتيب السادر لنخط فيه مجرانا ونشق اتجاهنا ؟ أفلا يعني العمل الحر عزما قاطعا ننفصل فيه عن الرتابة والحياة التى تحملنا في تيارها ، بل ننفصل فيه عن ذواتنا ، عن رواسب الاستمرار والركود في ذواتنا ، لنقرر في نهاية الامر فعلا جديدا ، فعلا مبتكرا ؟

إن الشعور بالحياة ، بالحياة المتفجرة لايكون إلافي لحظات الخلق الحر والعزم المبدع ، والحياة لا تعطي نفسها ولا تمنح الشعور بحرارتها ودفئها ، الا لمن حاول أن يجبهها ، أن يقف حقا في تيارها وأن يقطع انسيابها المستسلم مع الصفحة الظاهرة الراكدة منها .

والجيل العربي اليوم ، جيل عزم على أن يصنع التاريخ ، على أن يهب لتاريخه معنى ، وقرر أن يمنح وجوده مداه ، وهو لهذا جيل سعيد كأعمق ماتكون السعادة ، إنه يحس حقا بدفقة الحياة ويعالجها في أعماقه .

غير أن لكل مخاض آلامه ، آلامه السعيدة ، والجيل العربي الذي يحيا اليوم معركة الانفصال عن ركود ألفه سنوات طويلة ، والذي يتجه شطر مستقبل لم تستبن سائر معالمه بعد ، جيل يلقي من آلام المخاض ما يلقي ، ويعاني من التأزم ما يعاني ، فالآلام في نظرنا آلام خصيبة محملة بالعطاء ، إن هي وعت ذاتها ، وأدركت مسؤولياتها ، وهي على العكس معرضة لان تنقلب الى إجهاض فاشل ان هى لم ترتفع فوق الألم لتخلق منه الأمل .

ومن هنا كان واجبنا جيعا أن نقف فى معركة الولادة الجديدة هذه ، يقظين

حـذرين نسدد الخـطى ونبين لجيـل المعركـة حقيقـة وجـوده ، وواجب هـذا الوجود .

المرء الذى يعيش فى قلب المعركة ، قلما يستطيع أن يتبين جميع أوجهها ، ومن هو غارق فى التيار لا يقوى على أن يرى جنباته .

ولهذا كان جيلنا العربى ، الذى ألقى نفسه فى يمّ معركة قومية تـاريخية كبرى ، معرضا للانزلاق بحكم انغماسه فى لُجَّة اليمّ ، وانجرافه فى تياره .

ومن هنا أتى واجب الحديث عن واقعنـا الذى نحيـاه ومستقبلنا الـذى ننشده ، لنزداد وعيا لانفسنا ولئلا يغادرنا هذا الوعى فى أى لحظة من لحظات المعركة .

ان تساؤلنا كرة بعد كـرة : مَنْ نحن اليوم ، والى أين نسـير ؟ ما هـو بالتساؤل المكرور الذى فقد قيمته .

ان حاجتنا اليه ماسة دوما وهو الذى يجعل نضالنا نضالا مدركا لخطواته مصححا لاخطائه واثقا من نتائجه .

وما نزعم لانفسنا أننا نستطيع فى مثل هذه العجالة أن نفى هذا الموضوع الضخم حقه أو بعض حقه فهو موضوع حياتنـا كلها ، وهـو عملنا الـدائب المتصل الذى لا ينقطع وحسبنا أن نقف عابرين عند بعض الصور التى قد تساعد فى جلاء الطريق .

معركة وصراع

المجتمع العربى اليوم هو أولا وقبل كل شىء مجتمع ينهض فيه الصراع العنيف بين العادة والنزوع ، بين ما ألفه وبين رغبته فى أن يجاوز ما ألف .

لقد مرت على المجتمع العربى عهود من الركود والانحطاط كاد ينسى فيها حضارته وأصالته ، وتآمرت على هذا المجتمع جملة من القوى التى أرادت أن تفقده معالمه وأن تطمس كيانه القوى كاملا ، وتألب الاستعمار التركى عليه ، ومن بعده الاستعمار الغربى محاولا أن يقطع صلته بتراثه وأن يمحو خصائصه .

ولاشك أن أصالة العربى وقوة تراثه الحضارى كانتا أقوى من محاولات الطمس هذه وأمنع من حملات الابادة كلها ، على عنفها وشدتها فاستطاع أن

يصمد لهذه الغزوات واستطاع أن يحفظ شعوره بذاته ، شعوره بحضارته وأصالته .

وان مما يؤكد للعربي ثقته بنفسه ورفيع نجاره ومحتده هذا التحدى الجبار الذى قام به تجاه كل العوامل التى استهدفت ابادته والقضاء على كل صفة من صفات تراثه .

وهكذا خرج العربي من المعركة القاسية ، معركة القرون الطويلة ، ظافرا قويا ، جاوز مرحلة الثبات والصبر الى مرحلة الدفاع عن الذات الى مرحلة التحدى ، فتحدى الاستعمار ومايزال يتحداه ، وانتصر على قُوًى تفوقه ، فى معركة الجزائر وفى معركة عمان ، وفى معركة القناة ، وفى سائر المعارك النضالية التحررية التى تقوم على أرض عربية ، وان لم يسمع فيها دوما ضجيج السلاح .

غير أن هذا الاحساس بالعزة القومية ـ وهواحساس حق ـ ينبغى ألا يطمس أمام أعيننا بعض الحقائق والذى علينا ألا ننساه هو أن النزوع القومى الذى ثبت وانتصر ، لا بد أن يجاهد مخلفات المعركة التى قامت بينه وبين أعدائه فلكل معركة بقاياها المزعجة التى ينبغى ألا نتجاهلها،والمعركة التى قامت بين العرب وبين العوامل التى تألبت على كيانهم ووجودهم ، معركة انتهت دون شك بثبات المنازع العربية وصمود الروح القومية،ولكنها خلفت وراءها مع ذلك مجموعة من العادات ، تعشش فى قلب هذه المنازع وتصل الى الصميم من تلك الروح .

ولا نأتى بجديد من الامر اذا قلنا ان السنوات الطويلة التى أقام فيها الغرباء فى بلادنا ، عاثوا فيها تخريبا وتهديما قد أورثتنا مثالب مما أرادها هؤلاء الغرباء ، وجعلت فى حنايا وثبتنا العربية نفسها بذورا فاسدة ، ولا نغلو اذا قلنا ان وثبتنا العربية تحمل فى ثناياها بذور تهديمها واننا اذا لم نلتقط هذه البذور ونجتث أصولها شيئا بعد شيء عرّضنا وثبتنا للخطر الكبير .

وهل نحن بحاجة الى أن نستعير تعبيرا من ميدان علم النفس فنقول إن ثمة عوامل هدامة عميقة لا شعورية تقوى فى أعماقنا ، وتحاول أن تخرب فى الخفاء وأن تعمل فى الظلمة،وسبيل العلاج منها أن نعيها وأن ننقلها من اللاشعور الى الشعور ؟

وهكذا يقوم الصراع عميقا بين النوازع والعادات ، فالنوازع فى كل قلب عربي وفى كل أرض عربية ، نوازع البعث القومى والوحدة العربية

المنشودة ، أما العادات العقلية وأما التقاليد انفسية الموروثة ، فما تزال تغالب تلك النوازع .

مصطلح من علم النفس

وهى اذ تغالبها لا تقوى على أن تفعل ذلك جهارا وعلى شكل سافر ، وفعلتها فى هذا المجال فعلة العوامل اللاشعورية المكبوته ، وما دمنا قد أوردنا المصطلح المقتبس من علم النفس ، فالعوامل اللاشعورية المكبوتة كما نعلم لا تقوى على أن تظهر سافرة خوفا من رقابة الشعور وهربا من القيم التى يجرى عليها المجتمع ، ولهذا تتفتح وتظهر فى غير زيها ، وتتسل خفية ، على نحو ما نرى فى الاحلام أو زلات القلم واللسان ، أو الامراض النفسية ، أو النكتة أو غيرها .

كذلك العادات العقلية المألوفة التى ورثناها نتيجة عهود الانحطاط ، والتى هى بقايا المعركة بيننا وبين العناصر الدخيلة على كياننا ، فهى لا تظهر سافرة وانما تلبس لبوسا غير لبوسها ، بل انها تلبس لبوس المنازع العربية التى تغالبها وتحاول أن تصطنع زيها وأن تزيفه .

هكذا نجد الآن مجموعة من الافكار فى البلاد العربية ، تحاول أن تقاوم الفكرة العربية عن طريق اصطناع زائف لها وادعاء مؤمن بها فى الظاهر ، كافر فى الباطن مدعية الحرص الخاص عليها ، بينما هى تحاول هدمها .

وهناك وبعد أولئك وهؤلاء ، من قرّت فى أذهانهم عادات حرص المستعمر على بثها واشاعتها ، وجعل لها الصدارة فى أعماله وفى محاولات التهديم التى قام بها ، ونعنى بذلك الروح الطائفية أو العنصرية ، وأصحابها أيضا يحاولون أن يفرضوا بقايا العنصرية أو الطائفية التى ورثوها وأن يظهروها كعناصر لازمة للفكرة العربية وأن يتخذوها عقيدة ومبدأ ، زاعمين أن بينها وبين القول بالعروبة نسبا أو صلة .

وهناك أيضا أولئك الذين ألِفُوا النظم الاجتماعية البالية التى أقامها الغرباء فى بلادنا خلال سنوات طويلة ، فأرادوا أن يفلسفوا هذه النظم وأن يسيروا فى سياسة تعمية تجعل من مسايرة هذه النظم ضرورة تستلزمها طبيعة الكيان العربى .

ان المرحلة التى يعيش فيها جيلنا العربى هى مرحلة هذا الصراع بين النزوع العربى القوى وبين العادات الموروثة التى تعيش فى قلب هذا النزوع وتهدده ، ولعل الانوار تسلط على معالجة هذا التناقض الباطنى العميق بين

المنازع والعادات ، فتتجنب بذلك مخاطر المخاض المجهض ، ويزيد وعينا لنضالنا القومي وتعميقنا له .

خطر داخلي وآخر خارجي

ان أكبر خطر يمكن أن يهدد هذا النضال العربي الفتيّ هو أن نطمئن الى قوة الفكرة العربية ، والى عزيمة المنازع العربية ، فننسى ما يناقضها من عاداتنا السابقة وأفكارنا الموروثة الشوهاء ، والشيء الذي ينبغي أن يقر في ذهننا أولا وآخرا هو أن هذه المنازع معرضة لاخطار في قلبها وداخلها قبل أن تكون معرضة لاخطار تأتيها من خارجها ، وأن الوسيلة المثلى لتحقيق هذه المنازع هي عن طريق جهاد أنفسنا جهاد ذواتنا .

ان أخطار الفكرة العربية لا تأتيها من خارجها ، بمقدار ما تأتيها من داخلها ، من الافكار التي تتزيّى بزيها وتصطنع لباسها وهي نقيضها في الواقع .

ان الفكرة القومية على غناها في النفوس وشدة حرارتها في العروق ، لا تتحقق طائعة من تلقاء ذاتها ، وهي كأي فكرة تتحقق بمقدار وعينا لها ونضالنا في سبيلها ، انها تستلزم منا نضالا يوميا متصلا نتغلب به قبل كل شيء على أنفسنا ، على عاداتنا .

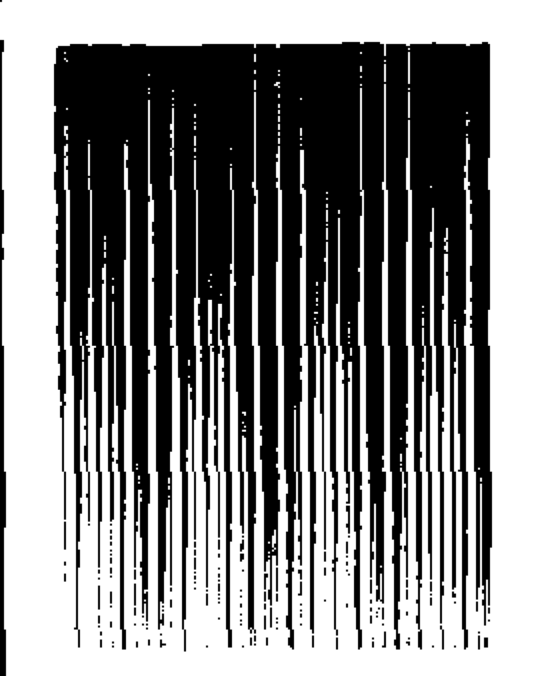
ان التاريخ ، تاريخ أمتنا ، ما هو بالشيء الذي يفرض ذاته ، انه يكتسب معالمه وصفاته كلها وعيناه وعرفناه ، وتاريخ الامة اكتشاف وبناء ، ويكون حيا بمقدار حياته في النفوس .

ومن هنا كان الواجب الاول والاخير على الجيل العربي الحاضر أن يعي المرحلة التاريخية التي يجتازها وأن يدرك صفاتها وألا يحجبه انسياقه في غمرتها عن تبين مقوماتها ومتطلباتها الحقيقية ، وعند ذلك وحده تتحقق له السعادة الحقة ، سعادة الوعي ، سعادة الادراك الحر ، سعادة النضال المتجاوز لذاته دوما ، المتسائل عن قيمته بلا انقطاع .

ان محاولة تجاوز الذات محاولة شاقة لا تقوى عليها إلا الاجيال الفذة ، ومحاولة تجاوز العربي لعاداته التي عاشت في أعماقه وتقاليده ومنشآته فترة طويلة من الزمن هي البطولة الحقة ، وهي النداء الذي ينبغي أن يغري النفوس الكبيرة في مرحلتنا العربية الكبرى .

الاستقلال الفكري للامم

د. عبدالرحمن البزاز



وراء الاستقلال السياسي ، والاستقلال الاقتصادي - بل قبلهما - مطلب حيوي لكل أمة حية ، إنها تريد أن يكون لها « استقلالها الفكري » أيضا ، وإن حاجتها الى هذا الاستقلال ليست أقل من حاجتها الى الاستقلال السياسي أو الاستقلال الاقتصادي ، وان يكن تَنَبُّهها إليه لا يكون في العادة عاما بل مقصورا بالدرجة الاولى على الفئة الواعية التي لا تكتفي بمظاهر الاستقلال السياسي ، ولن يغنيها الاستقلال الاقتصادي عن المطلب الاسمى ، وأعني به استقلال الأمة الفكري والروحي ، ذلك الاستقلال الذي به - قبل كل شيء - تتحقق للامة الكرامة التي هي أجمل غايات الاستقلال وأعظمها .

ان أية أمة من الامم حريٌّ بها ألاّ تعـد نفسها مستقلة حق الاستقـلال الكامل مالم يواكب استقلالها السياسي والاقتصادي ، هذا الطراز الأمثـل من الاستقلال الفكري والروحي الذي هو عنوان الاستقـلال الخالـد ، وبرهـانه القاطع الذي لا يزيف .

وليس الاستقـلال الفكري هـذا دعوة لـلابتعاد عن العـالم ومبتدعـاتـه الحديثة ، وليس هو انزواء وانطواء عن ركب الانسانية الصاعد ، وليس هو تنكرا لما قدمته المدنية الغربية الحديثة ، وماتزال تقدمه ـ وهي الى حد بعيد قد أضحت اليوم عالمية في كثير من مقوماتها ـ ولا هو ـ فوق ذلك ـ تجاهلا لما تحدثه الحضارات عادة من تفاعلات بسبب التقائها وتأثير بعضها على بعض في حدود المعقول ، بل إنه ، أولا وقبل كل شيء ، دعوة لتحقيق الـذات ، والشعور بالاصالـة ، ورغبة في الاسهـام في التراث الانسـاني على أسـاس من التكافؤ والمشاركة الصادقة الخلوة من التخاذل والارتماء والتبعية .

وأكثر من هذا ليس من الضروري أن تقف الامم الحديثة النهوض تجاه الغرب والشرق وأممه موقف التابع للمتبـوع ، لمجرد عـدم قدرة هـذه الامم الحديثة اليوم على الابـداع الفني الصناعي « التكنيكي » ، وعـدم استطاعتهـا مجاراته في ميادين العلوم ، ومجالات التقدم الاقتصادي ، مادامت تلك الامم قادرة على اثبات وجودها ، وتأكيد قدرتها على أن تكون أصيلة مبدعة ، وخاصة تلك الامم التي لها من ماضيها العريق الحافل ما يبرر هذا المطمح الواسع ، ذلك أن الاشواط التي سبقتها فيها أمم الغرب لم يكن لها بد منها ، وليس مرجعها تخلفا أصيلا في ذاتية هذه الامم التي تيقظت حديثا وأخذت تسابق الزمن لتلافي أوجه النقص العديدة التي أورثتها إياها ظروف وأوضاع وسياسات فرضت هذا التخلف عليها فرضا ، وحين أتيح لها التخلص من سلطان مستعمريها ، بـل ومستغليها ، بدت قادرة على المجاراة والمسابقـة ، ثم إن الزمن وحـده كفيل بتقريب المسافات وازالة التباينات الكبرى المشاهدة اليوم .

ان روح « الاستقـلال الفكري » هـذه تقوم بـإرهاف الشعـور بالعـزة والكرامة والاعتداد الكامل بالذات ، وهي ـ قبل سواها ـ خليقة بأن تحقق المعنى الكامل للاستقلال في كل المجالات ، وانه لمن العبث والتضليل أن يُتخذ من مظاهر التخلف المادي المحسوس ، واختـلاف مستويـات العيش الظاهـرة ، وتباين الأوضاع الاقتصادية بين الدول دليل على لزوم إبقاء التبعية وحتميتها . .

رواسب فكرية

وانه لمن الواضح أن بعض مخلفات عهود الاستعمار ، أو على الادق التسلط ، تبقى في المجتمعات التي كانت خاضعة لمشيئة غيرها بعد زوال سلطان تلك الدول السياسي ، والخطر ، كل الخطر ، أن يأنس الافراد بهذه الآثار السيئة ويألفوها حتى تصبح ـ على الرغم من انحرافها من حيث الاساس واساءتها اليهم في الاصل ـ طبيعة مستساغة تجعلها العادة ومرور الزمان أمرا واقعيا غير منكور ولا مستهجن .

دعونا نفكر في بعض آثار الاستعمار الفكري في أقطارنا العربية في هذه الميادين . . ترى كم هي آثاره السيئة على لغتنا ، وأدبنا وتقاليدنا ، وروح مجتمعنا ومقاييس الحياة العامة بيننا ؟!

ان الروح الثورية الواعية هي وحدها التي تُبقي جذوة الصراع متقدة بحيث لا تكتفي الامة باستقلالها السياسي والاقتصادي ، بل لابد لها من تأجيج المشاعر ، وايقاظ الضمائر ، بحيث لا ترضى عن الاستقلال التام المتسامي بديلا . .

وهذا « الاستقلال الرفيع » لا يكون حقيقة واقعة الا اذا تحررت الأمة من سلطان غيرها الفكري ، وكشفت عما ران على قلوب بعض أبنائها ، من غشاوة ، وعادت الى نفسها تستقى من ينابيعها العميقة الاصيلة كل ما تروي به شجرة وجودها المزدهرة في كل أمر من أمورها ، في لغتها ، في آدابها ، في فنها ، في فلسفة حياتها ، في آداب عيشها ، في طرق سلوكها ، في قيمتها الاجتماعية ، وفي الخلاصة ، في كل جليل أو صغير من أمور حياتها ، في كل ميادين الحياة الرحيبة ، بحيث تبدو في أعين الناظرين « أصلا أصيلا » ، وليس مجرد صورة حسنة النقل أو مشوهتها .

ان بلوغ هذا المقام يحتاج الى الكفاح والجهد والتضحيات أضعاف ما قد يحتاجه الاستقلال السياسي ، ولكنه صراع فكري ، وكفاح سلمي ، لا تراق فيه الدماء ، ولا تهدر فيه الأموال ، وان كان لابد من عصر الادمغة ، واهاجة القلوب ، وارهاف الاعصاب ، واستثارة الارواح وايقاظها .

واذا ما تركنا التعميم ، وعدنا الى واقع أمتنا العربية ، ونظرنا الى حياتها اليوم في كل أقطارها ، وتساءلنا عن آثار هذا الاستعمار الفكري في كل أجزاء الوطن العربي الكبير ، هالنا ما وجدنا من آثار هذا الاستعمار البغيض في لغة

حياتنا ، في مصطلحاتنا التي نصطلحها للاشياء ، في مسمياتنا للمحلات العامة ، في نظراتنا السياسية والاجتماعية وفي كل ضرب آخر من ضروب حياتنا ، ففي « لغاتنا الدارجة » اليوم مئات من المفردات الايطالية والاسبانية والفرنسية والانجليزية والتركية والفارسية وغيرها من اللغات ، تلك المسميات التي دخلت أقطارنا العربية مع المستعمرين ، وبقينا نتداولها من غير ما ضرورة أو حاجة الى استعمالها ، ولكن الكسل العقلي ، والخضوع لسلطان الاستعمار الفكري ، وتخدر مشاعرنا ، هي العوامل التي تُبقي هذه الالفاظ والمصطلحات حية بيننا لتزيد من مظاهر الفرقة بين أقطارنا ، ان كل قطر أو مجموعة أقطار تأثر بلغة من اللغات الاجنبية ، وصار يستعمل مفرداتها ومصطلحاتها بحيث تبدو غريبة في أعين أبناء الاقطار العربية الاخرى التي لاتستعملها ، هي بدورها ألفاظ أجنبية أخرى .

اللغة ودور الاستعمار

وطبيعي أن السبيل السوي الذي يجب على هذه الاقطار جميعا أن تسلكه هو طرد تلك المسميات من لغتها ، وإحلال العربية الفصحى الجامعة محلها ، بحيث تشير هذه « اللغة الواحدة » من جديد الى وحدة أمتنا ، وتنفي مظاهر الفرقة التي أورثنا إياها المستعمر الذي طردناه من أرضنا ، ورضينا مع ذلك بابقاء آثاره السيئة حية بيننا .

وأسوأ من هذا فاننا لم نكتف باستعمال المفردات الاجنبية فحسب ، بل خضعنا الى الاستعمار الفكري خضوعا أشد ، وصرنا نستعمل تعبيراته ومصطلحاته في تحياتنا وإظهار علامات الاستحسان بيننا ، وآداب سلوكنا ، وصرنا نقلده في أشياء كثيرة أخرى تقليدا أعمى دون أن نفطن الى أننا نمسخ شخصيتنا ، ونهدر كرامتنا القومية ونقيم البرهان على عدم استقلالنا استقلالا حقيقيا تتحقق في ظله الكرامة التامة لأمتنا ، وتبرز فيه شخصيتنا أصيلة واضحة قوية .

ولا شك أن الاسهاب في توضيح هذا الذى ألمعنا اليه بايجاز قد يحتاج الى أكثر مما يتسع له المقام ، ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نشير هنا الى أمر خطير كثيرا ما غفلنا عنه على الرغم من خطورته العظيمة هذه .

ان أسوأ آثار الاستعمار الفكري فينا هي تسمية بلادنا « بالشرق الادنى »

أو « الشرق الاوسط » ، ومعنى ذلك أننا رضينا أن نُعَرَّف تعريفا نسبيا بعد اتخاذ دول أوروبا الغربية الاستعمارية كانجلترا وفرنسا الاساس الذي تقاس هذه التسمية عليه ، فمصر وسورية ولبنان مثلا بلاد « الشرق القريب » ، أو « الشرق الادنى » للسائح أو المستعمر الغربي المسافر من بلاده متجها الى الشرق نحو بلادنا ، فنحن بهذا الاعتبار بلاد الشرق الادنى أو القريبة . . . ولكن ما معنى هذا بالنسبة لنا نحن ؟ لا شيء بالتأكيد . . .

ثم إن الغرب استعاض عن مصطلح « الشرق الادنى » بمصطلح « الشرق الاوسط » وجعله يشمل بالاضافة الى بعض الأقطار العربية التي كان يطلق عليها من قبل مصطلح الشرق الادنى ، تركية وايران وباكستان والحبشة و « اسرائيل » وبعض الاقطار الاخرى ، والغرب حين ابتكر هذه المصطلحات قد صاغها على أساس من مصلحته وتخطيطه التعبوي ، « استراتيجيته » ، ومخططاته السياسية والاستعمارية عامة .

وليس العيب على الغرب أن يصطنع من المصطلحات ما يلائمه ، ولكن العيب كل العيب ، علينا حين نرضى بأن نسمي أنفسنا تسمية نسبية غير دقيقة ، ولا معبرة عن حقيقة وجودنا ، ان مصطلح « الشرق الاوسط » لا تدخل فيه أقطار شمال افريقية العربية كتونس والجزائر والمغرب الاقصى مثلا ، فكيف نرضى بتسمية تُخرج قسما مهما من وطننا العربي من وجودنا ، وتعزل شطرا كبيرا من أبناء قومنا عنا ؟ ان التسمية الصحيحة هي أن نسمي أنفسنا عربا ، وإن عروبتنا الجامعة تضمنا في مشرقنا ومغربنا ، والعرب منذ أقدم الازمان عرفوا هذه الحقيقة فسمَّوْا عرب المشرق بالمشارقة ، وعرب المغرب بالمغاربة .

الاحـــلاف

ويبدو جليا أن الغرب الذي يُؤْثر اليوم استعمال هذا المصطلح « الشرق الاوسط » يُروِّج من خفاء لزوم تسليمنا ببعض مخططاته السياسية والعسكرية ، فكأنه يريد أن يوهمنا بأننا وتركية وايران وباكستان مثلا شيء واحد ، وأن ما يصلح لهذه الأقطار من أحلاف وسياسات عامة حريٌّ أن يكون صالحا لنا أيضا ، لأننا كلنا من بلاد الشرق الاوسط ، وأن هذا الرباط الجغرافي يفرض علينا ـ هكذا يتخيل الغرب ويزعم ـ واجبات يحق علينا عدم نكرانها أو الاستهانة بها ، وهو بعبارة أدق يريد أن ينظر الينا بوصفنا أقطارا أو أقاليم في منطقة جغرافية

وتعبوية معينة ، وهو لا يعنيه كثيرا أن يُبصرنا بوصفنا أمما مختلفة القوميات تتعارض مصالحها القومية في أشياء كثيرة . .

وفوق هذا ، وشر من هذا ، أن مصطلح « الشرق الاوسط » يشمل في نظر الغرب ، فيما يشمل ، « اسرائيل » وكأنه يريد أن يروضنا على التسليم بما يعده هو حقائق ثابتة من العبث نكرانها ، ومَنطقهُ يسير على هذا الطراز من المنطق الظاهري : ان « اسرائيل » في الشرق الاوسط ، انها حقيقة قائمة ، وإنها قد وُجدت فعلا ولم تعد مجرد هدف من أهداف الصهيونية ، وأنها قد وجدت لتبقى . . . فما عليكم - ياأبناء الشرق الاوسط - الا أن تعيشوا سواء ، وأن تجدوا بينكم من وسائل التعاون والانسجام ما يحقق السلام ، السلام كما يحدده الغرب ، وبالمدى الذي يتحقق في ظله ما يريد من أهداف ومآرب .

وأبناء الشرق الاوسط المخاطبون بهذا النداء هم العرب الذين انتزعت « اسرائيل » - قسرا ، وبعون الغرب ومكره أولا وقبل كل شيء - جزءا عزيزا من وطنهم ، فهم لذلك ينظرون اليها بغير العين التي يريد الغرب أن يعودهم على النظر بها ، والعرب يعتبرون « اسرائيل » ، وان وجدت اليوم في الشرق الاوسط ، فانها ليست منه في المعنى الثابت الأصيل ، انها جسم غريب في أرض غريبة عنهم ، ولن يقدر الغرب أن يجعل وجودها مستساغا عن طريق أمثال هذه التسميات ، وان استطاع فرض وجودها سياسيا .

فمن هذه الناحية - خاصة - يجب أن نحرص على تسمية بلادنا بالبلاد العربية ، وأن نعرف وجودنا بكوننا عربا ، وفي هذا نبطل وجود « اسرائيل » فكريا ، ونؤكد أن الاسرائيليين قوم غرباء عنا ، مغتصبون لارضنا ، وانه ليس باستطاعة الغرب ، مهما أوتي من خديعة ومكر ، أن يبرز ، بطريقة أو بأخرى وجودها بيننا على أساس فكري .

التعبير الصحيح

وقد يكون من الطريف أن نعلم أن « نهرو » وكثيرا من كتاب الهند ومفكريه حين يتكلمون عنا يسموننا بالآسيويين الغربيين ، وهذه تسمية نسبية صحيحة من الناحية الجغرافية ولكنها لا تعبر أيضا عن حقيقة وجود أمتنا العربية الكامل ، فنحن العرب من الامم الكبيرة التي تسكن قارتين عظيمتين ، ويمتد وجودنا في مشرق الارض ومغربها ، فيكون تحديدنا بالنسبة لقارة من القارات ،

أو بالنسبة لموقعنا من بعض الدول الغربية الاستعمارية لا يعبر عن حقيقة وجودنا تعبيرا صحيحا ثابتا ، ان التعبير الحر الصادق الاصيل هو أن ننتسب لعروبتنا دون سواها ، وإن آثار الاستعمار الفكري هي التي تشيع بيننا تسميات خاطئة ، كأن نسمي أنفسنا شرقيين ، أو أبناء الشرق الاوسط ، أو الشرق الادنى ، حين نعلم يقينا أن كل قطر اليوم ، وكل قارة من القارات هي شرق وغرب بالنسبة لقطر أو قارة أخرى .

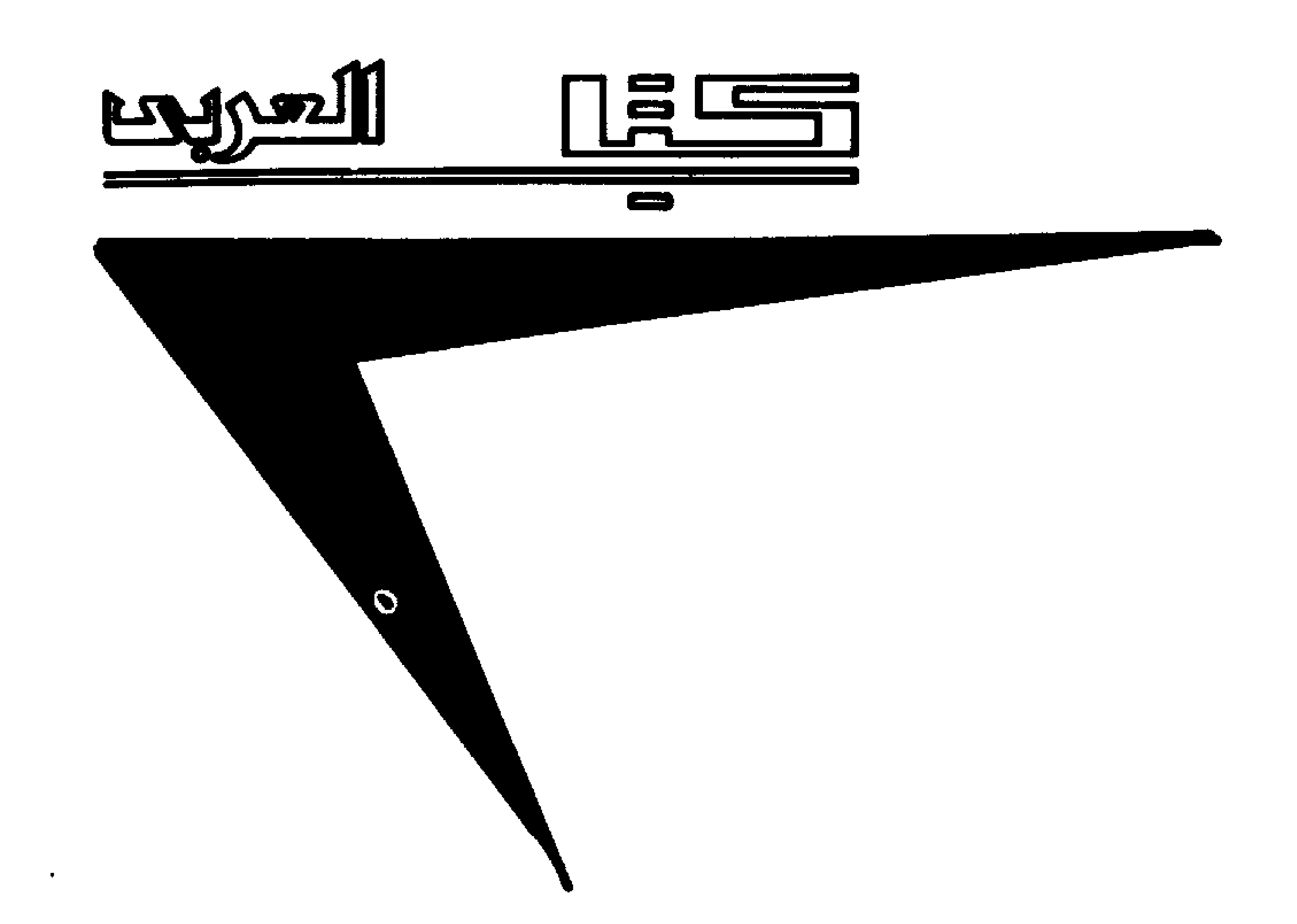
وقد تسعفنا في ادراك هذا المعنى الواقعة التالية :

حينما دعيت في ربيع عام ١٩٥٦ لالقاء سلسلة محاضرات في بعض الجامعات والنوادي والمؤسسات الامريكية للتعريف بالامة العربية ، وعرض مشكلاتها الاساسية على الرأي العام الامريكي المثقف ، وذلك بعد أن مثلت العراق في لجنة حقوق الانسان التابعة لهيئة الامم المتحدة دعيت لالقاء محاضرة في مدينة « بركلي » على ساحل المحيط الهادي في ولاية كاليفورنيا ، وقلت في مطلع المحاضرة ما معناه : انني في بلاد اعتدتم على تسميتها ببلاد الشرق الادنى ، أو بلاد الشرق الاوسط ، ولو نظرتم الينا - كما يجب أن تنظروا - لكان من الأحرى أن تسموا بلادي « الغرب الاقصى » . . . فضحك فريق من الحاضرين ، فأضفت قائلا : حقا انني لم أرد الدعابة ، ولم أقصد اللعب بالالفاظ ، ولكنني هدفت الى معنى أعمق ، هو أنكم - معشر الامريكيين - قد نظرتم الينا عن طريق أوروبا ، وورثتم عنها كل تعصباتها ، وأحكامها المسبقة ، ولم تنظروا الينا نظرة طليقة مجردة ، وهنا تكمن مشكلة المشاكل في العلاقات العربية الامريكية . . ثم دخلت الموضوع الذي أريد عن هذا الطريق . .

واني اليوم ، وبعد مضي بضع سنوات على خطابي المشار اليه آنفا ، لأسائل نفسي : أفمن حقنا أن نطالب الامريكيين بأن ينظروا الينا مثل هذه النظرة العميقة المجردة حين لا ننظر الى أنفسنا الا من خلال ما أورثنا اياه الاستعمار الغربي من قيم ومصطلحات ومسميات وأفكار ؟

وكم من جهد - ترانا - نحن بحاجة ماسة اليه لنثبت وجودنا ، ونقيم حياتنا ونركز دعائم قوميتنا ، على هذا الاساس المتين الطليق من قيود الاستعمار ، المجرد من آثار الاستعمار الفكري الذي هو أسوأ أنواع الاستعمار وأبشعها ؟!

الفهرس



أضواء على لغتنا السمحة

محمد خليفه التونسي

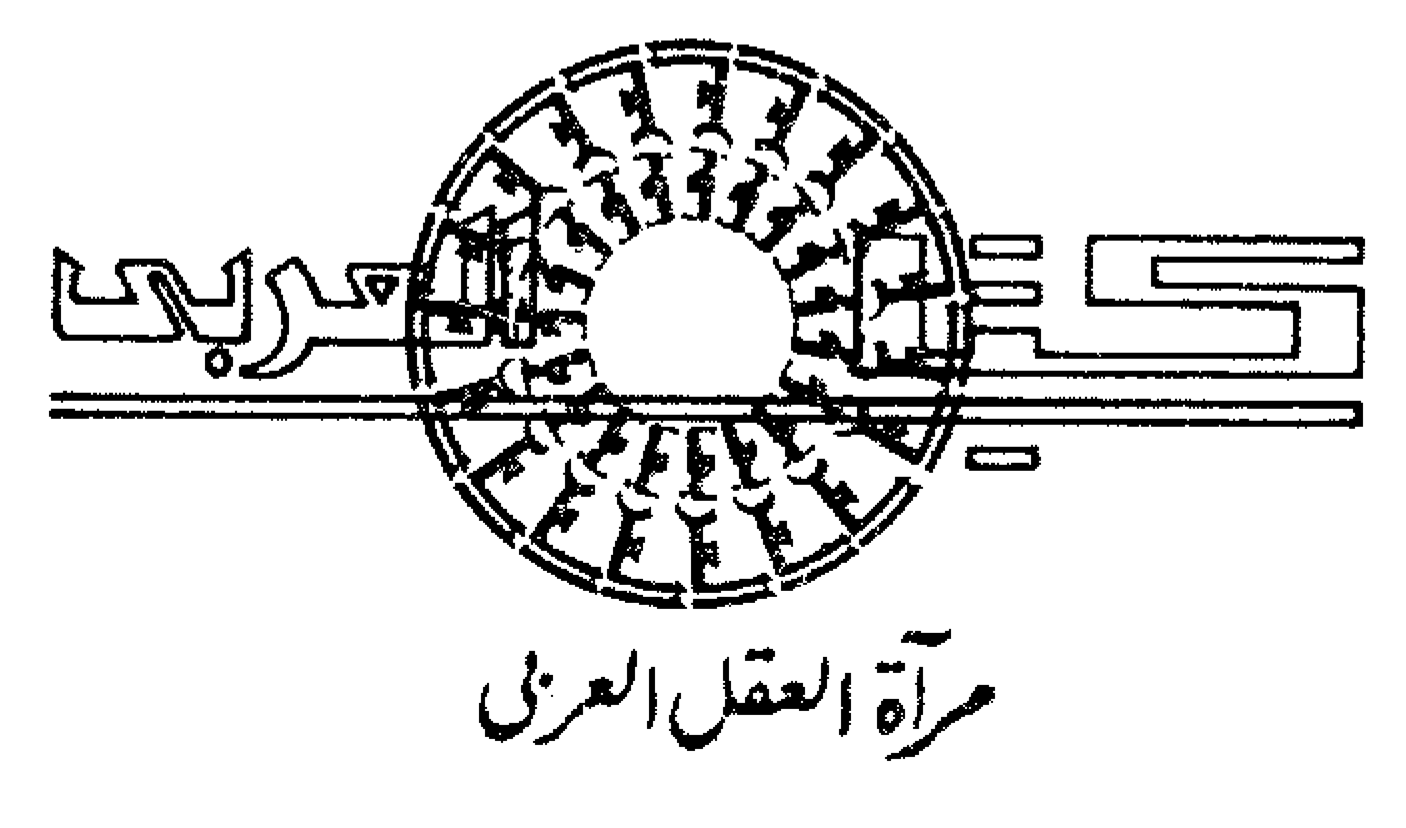
العدد التاسع ١٥ أكتوبر ١٩٨٥م



شهدت مرحلة الستينيات مداً قومياً ملحوظاً في وطننا العربي ، ونشط فيها رواد هذا الفكر من الكتاب في توضيح سماته وبينوا المرتكزات التي تقوم عليها وحدة الأقطار العربية .

وما زال هذا الفكر له تأثيره وامتداداته ، لذلك فاننا آثرنا أن نقدم بعض هذه الاجتهادات في الفكر القومي العربي مما تم نشره في المجلة .

وقد كتب في هذا المجال مجموعة من أبرز دعاة هذا الفكر ممن مايزال بعضهم على قيد الحياة ، يعطي ويواصل نشاطه ، وبعضهم قضى نحبه مخلفاً تراثاً من الفكر والآراء والدراسات علّنا نفيد منها ونستفيد .



مرآة العقل العربي

طبع في
مطبعة حكومة الكويت

■ الأسعار بالداخل ■